

آداب الملوك

الثعلبي ، عبد الملك بن محمد بن اسماعيل ، 961-1038
أدب الملوك / لأبي منصور الثعلبي ، إعداد وتقديم عبد الحميد حمدان ، ط 1 -
القاهرة : عالم الكتب ، 2007

104 ص . 20 سم . - (زبدة التراث : 16)

شماره : 8-557-232-977

1- الملوك والحكام في الأدب العربي

أ. حمدان، عبد الحميد (مد ، مقدم)

810.9031

بسم الطوائف

عالم الكتب

نشر ، توزيع ، طباعة

✦ الإقامة :

16 شارع جولا حسن - القاهرة

تليفون : 3824626

فاكس : 002023838027

✦ المكتبة :

38 شارع عبد الحفيظ شريف - القاهرة

تليفون : 3925401 - 3959534

ص . ب 86 محطة قريه

الرمز البريدي : 11518

✦ الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

✦ رقم الإيداع : 23510 / 2006

✦ الترقيم الدولي I.S.B.N

8-557-232-977

✦ الموقع على الإنترنت : www.alamalkotob.com

✦ البريد الإلكتروني : info@alamalkotob.com

زُبْدَةُ الثَّرَاثِ

(١٦)

آدابُ الملوكِ

لأبي منصورٍ الثَّعَالِبِيَّ

(٣٥٠-٤٢٩ هـ)

إعداد وتقديم

الدكتور عبد المحمد صمدان

الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م

دار الكتب

obeikandi.com



obeikandi.com

سلسلة زبدة التراث

تهدف هذه السلسلة في المقام الأول إلى إحياء تراثنا الحضاري الديني والعلمي بتبسيطه وجعله في متناول يد الجميع، وخاصة شباب جيلنا المعاصر، وتقوم هذه السلسلة على أساس انتقاء زبدة نصوص شوامخ المؤلفات والمصنفات لأعلام الفكر العربي والإسلامي وإخراجها في صورة موجزة لا تحل، بل تفي بالغرض الذي وضعت من أجله، دون الإثقال على القارئ الكريم بالتفاصيل المطولة أو الخواشي المسهية. وقد جاء الاختيار غير عشوائي أو تعسفي، لكي يرضى جميع الأذواق والاتجاهات؛ وليكون مرآة صادقة لتراث حضارتنا الزاهرة وصانعيها على مر العصور، وإتاحة الفرصة للرجوع إلى الأصل الذي لا تغنى هذه الزبدة عنه بطبيعة الحال؛ فالغرض الأساسي لهذه السلسلة هو تحبيب التراث إلى النفوس وتقريبه إلى الأذهان.

وستعتمد هذه السلسلة على أمهات الكتب المحققة بواسطة محققين ثبت، وكذلك على بعض المخطوطات عند الاقتضاء.

الناشر

obeikandi.com

تقديم

ولد الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل في نيسابور عام ٣٥٠هـ.^(١) ولا نعرف الكثير عن حياته رغم شهرته الواسعة واعتباره من ألمع أدباء عصره في البلاغة والفصاحة^(٢). وقد درس الثعالبي على يد أبي بكر الخوارزمي، وبديع الزمان أحمداً. وتكشف مؤلفاته أنه كان علماً كبيراً وأديباً فذاً. وتنقل في حياته التي طالت إلى ثمانين سنة^(٣) بين بخارى وجرجان وغزنة وأقام بها ثم رحل إلى نيسابور؛ حيث قضى بقية عمره حتى وفاته في عام ٤٢٩هـ / ١٠٣٨م.

(١) انظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خنكسان ١٧٨/٣، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٤٣٧/١٨؛ وموسوعة العلماء والأدباء العرب والمسلمين، دار الجيل، بيروت، ٢٠٠٥، ج ٤/ ٨١٧-٨٢٢.

(٢) انظر مقدمة كتابه "آداب الملوك" بتحقيق الدكتور جليل العطية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠.

(٣) انظر ابن العماد، شذرات الذهب، ٢٤٦/٣.

وألف الثعالبي كتابه "آداب الملوك" لمأمون بن مأمون الملقب
بخوارزم شاه بين سنتي ٤٠٣ - ٤٠٧ هـ. وهذا الكتاب يعد من أهم
كتب الثعالبي؛ حيث أودعه خلاصة تجاربه في التأليف، وكان في ذلك
الوقت قد تجاوز الخمسين من عمره^(٤).

وتدل مقدمة كتابه هذا على براعة الثعالبي اللغوية، وتمكنه من
استيعاب الفكر الإسلامي. هذا وللثعالبي مؤلفات أخرى كثيرة منها
ما نشر ومنها مازال مخطوطاً. وقد أورد الصفدي في كتابه الوافي
بالوفيات،^(٥) قائمة طويلة بكتبه، وقد نشر فيها على سبيل المثال كتاب
"يتيمة الدهر ومحاسن أهل العصر"، وهو أشهر ما كتبه الثعالبي،
وكتاب "شمس الأدب في استعمال العرب"، وكتاب "لطائف
المعارف"، وكتاب "محاسن كلم النبي صلى الله عليه وسلم"، وكتاب
"الأشباه والنظائر"، وكتاب "اليواقيت في بعض المواقيت"، وغير
ذلك من المؤلفات القيمة.

دكتور عبد الحميد صالح حمدان

(٤) انظر مقدمة كتابه "آداب الملوك" بتحقيق الدكتور جليل العطية، بيروت، ١٩٩٠.

(٥) الوافي بالوفيات للصفدي، ١٩ / ١٩٤.

كتاب

آداب الملوك

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الحمد لله الذى الأمر له، والخلق بيديه والاستعانة به، والتفويض إليه، وصلواته على بشير الثواب، ونذير العقاب، محمد المصطفى وآله وصحبه، ما طلع حاجب شمس ولا حجب جبين قمر.

ثم الحمد لله الذى استخلف الملوك فى أرضه واسترعاهم أمور خلقه، وجعلهم المدافعين عن سواد الأمة وبياض الدعوة، والأزمة على الملة والحوزة.

ثم الحمد لله الذى جعلنا من أدرك عصر مولانا الأمير السيد الملك العادل ولى النعمة أبى العباس مأمون بن مأمون خوارزم شاه - مؤيد أمير الأمير - أدام الله سلطانه، وحرس عزّه ومكانه، وأسعدنا بالوصول إلى رواق المجد، ومستقر الملك من حضرته، وأسبغ علينا النعمة فى الاعتصام بعروة العزّ من خدمته، والدخول فى جملة حاشيته وغاشيته، حتى رأيناه مجتمعاً فيه من رويناه عن أعيان الملوك متفرقاً، وشاهدنا منه عياناً ما قرأناه فى الكتب وسمعناه فى السير من محاسن

أماثلهم، وخصائص أعظمهم، وأفاضلهم، فإن ذكرنا ما يتفاخر به
الملوك من كرم الأصل وقدم البيت، كان الشرف نسب أسلافه،
والمجد لسان أوصافه، وإن أفضنا في حديث الصورة - الذى هو أول
السعادة وعنوان الخير والنعمة، وما زالت العرب والعجم تمدح
ملوكهم به، وتعتد لهم بفضله - رأينا في وجهه القمري: التصوير
الشمسى التأثير، ما ينطقنا بتسبيح رب العالمين والثناء على أحسن
الخالقين، عودنا به جل جلاله من العيون العائنة، والصدور الخائنة،
وإن تجارينا في الأخلاق العظيمة والهمم البعيدة والآراء السديدة
والسير الحميدة، وسائر المعاني والمناقب الملوكية، فهو - أعز الله نصره
وأدام ملكه - جامع أطرافها وناظم أشتاتها والأخذ برقابها والبالغ
أقصى غايتها على اقتبال شبابه وغضاضة عوده، فكيف إذا انتهى إلى
أشد الكهل وأسفر له صبح الشيب؟! وإن أجرينا إلى حديث الآداب
والعلوم، لم نشبهه فيها إلا بسمي المأمون، ولم يشك من سمع على
كلامه، وعاین ثمار أهلامه في أن البلاغة عفو خطراته والبراعة من
أدنى صفاته، وإن تذاكرنا ما شمل رعاياه من العدل وعم بلاده من
الأمن ونفق في سوقه من بضائع الفضل وتجدد في أيامه - أدامها الله -
من آثار الديانة وعاد إليها من عادات المروءة - شهدت أيامه
الواضحة وأدلتها الصادقة، بأنه من الله تعالى بين تأييد وتأييد،
ومخصوص من عنايته بعقد وكيد، وإن له - عز اسمه - سرّاً في علاه
يفضى به إلى مناه من دينه وديناه.

فإلى من جمل الزمان بأيامه وأحيا وأحيا محاسن السير بمكانه
يرغب بالنيات الصادقة والضمان الخالصة في حراسة سلطانه وتثبيت
أركانه وإطالة بقائه على اليد والكلمة والراية متظاهرة البسطة والغبطة
والولاية وتيسير الفتوح له شرقاً وغرباً وتمكينه من نواصي أعدائه سلماً
وحرباً حتى يبلغ أفضل ما يقسمه السعود، ويستغرق أقصى ما تعلو به
الحدود.

ثم إن هذا الكتاب الذي خرج أمره العالی - زاده الله علواً - بتأليفه
في السياسة التي هي آلة السفطان وأداته، بها نظام الملك وعليها مداره،
قد جعلت له مقدمة وسياسة، وبينته على أن يتضمن الغرر والنكت
واللمع والعهد مما يصح للملوك وأصحابهم، وذكر ما لهم وعليهم،
ورتبته في عشرة أبواب، يشتمل كل منها على عدة فصول مترجمة بذكر
مودعاتها:

فالباب الأول: في الإفصاح عن علو شأن الملوك وشده الحاجات
إليهم وما يلزم الناس من طاعتهم وإعظامهم وإجلالهم.

والباب الثاني: في صدور من الأمثال والتشبيهات الملوكية
والسلطانية.

والباب الثالث: في نكت كلام الملوك ووصاياهم وتوقيعاتهم
ولطائف الفضلاء في مخاطباتهم.

والباب الرابع: في السياسة وأقاويل الملوك وغيرهم ومواعظ
الحكاماء للملوك.

والباب الخامس: في أخلاق الملوك وعاداتهم ورسومهم المحمودة
والمذمومة في السياسة وغيرها.

والباب السادس: في اختيار الملوك: الوزراء والعمل والخدم.

والباب السابع: في آفات الملوك.

والباب الثامن: في أعداء الملوك وتدابير الجيوش والحروب.

والباب التاسع: في جنل ما ينبغي للملك أن يأتيه ويزدرية في
السياسات وغيرها.

والباب العاشر: في خدمة الملوك وآداب أصحابهم.

وكنيت أردت أن أترجمه بالنسبة إلى الاسم الشريف - ثبته الله تعالى
- فأخبرني أبو عبد الله محمد بن حامد أن بعض المؤلفين سبقني إليها
فيما ألفه برسم المجلس - حرسه الله وآمنه - من كتاب في علم
الكلام، فقلت الآن: إن سميت الملوكي كنت صادقاً، وإن لقبتني تحفة
الملوك وعدة الملوك لم أك كاذباً، لكنني آثرت تفخيمه بالخوارزم
شاهي ليكون أنبه لاسمه، وأبعد لصيته؛ فالمصنف لا ينزع في ترجمة
كتابه، كما أن الوالد لا يغلب على اسم ولده، ومولانا الملك العادل
خوارزم شاه - أدام الله أيامه - وإن كان علماً بل عالماً في علم السياسة
وجمع مصالح الخاصة، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ولنكتب الجديدة لذة
في نفوس المحصلين، ندعوهم إلى مطالعتها، والاقتباس منها

والاستمتاع بها، وإذا كان الملوك أعقل الناس وأشرفهم وأفضلهم،
كان ما يصلح من الآداب لهم أشرفها وأفضلها، لا سيما إذا تميزوا عن
أشكالهم ونظائرهم بمزية المعرفة واستضاءوا بنور الحكمة، وإنما
أقنيتهم موارد جلب، ومواقف طلب، يحمل إليها ما ينفق فيها، ويجمع
لها ما يطلب بها، وهذا ما أفتحه من سياقة أبواب الكتاب، والله الموفق
للصواب.

obeikandi.com

فى الإفصاح عن علو شأن الملوك وشدة الحاجات إليهم،
وما يلزم الناس من طاعتهم واعظامهم واجلالهم.

قد عظم الله - عز اسمه - شئون الملوك، ورفع أقدارهم وأجل إخطابهم، ومكنهم فى أرضه وأكرمهم بسلطانه، وغشاهم القبول والمهابة وأعطاهم العزة والأبهة، لما علم من صلاح عباده بهم واقتدار العامة والخاصة إلى سياستهم وحياطتهم فى أمور دينهم ودنياهم وآخرتهم، وجعل تمليكهم لهم [أياهم] وبسطة أيديهم من الحكمة البالغة، ونعمه السابعة، وأجرى طاعتهم مجرى الفرائض التى يثيب من أداها ويعاقب من تعداها، وكان من الفروض اللازمة والحقوق الواجبة، وشروط الطاعة المأخوذة ومعالم الرشد المتبعة، تعظيم من عظم الله، وتعجيل من كرم الانقياد لمن سلط، والتسليم لمن مكن له وبسط. وما أشبه حاجة الرعية إلى الراعى كحاجة الجسد إلى الرأس، وما أقرب فضل الراعى على الرعية فى فضل الفرائض والسائس والفارس على الدابة، ولولا الملوك لأكل الناس بعضهم بعضاً، كما أنه لولا الراعى لأتت السباع على الماشية.

وما أحسن قول عبد الله بن المعتز في بعض فصوله القصار: فساد
الرعية بلا ملك، كفساد الجسم بلا روح.

وكثيراً ما أقول وأحب أن يحكى عنى: كما أن أحوال الملوك عالية
وأوامرهم نافذة وعيشتهم راضية، فمؤنهم كثيرة وهمومهم كبيرة
ومحنهم عظيمة، ومن تأمل بعين عقله أمورهم، لم يستكثر ما أفيض
عليهم من المواد؛ إذ قد لزمهم لرعاياهم أن يحوطوا من ورائها
ويدافعوا عن دهمائها، ويتحملوا من أثقالها أضعاف ما فضلوا في
المعيشة عليها، ولم يستقل العوام ما قدر من أوقاتها؛ إذ قد رقدتها بتيقظ
من يمنع حريتها، واطمأنت بنصب من يحمى حماها وصار ما يحترنه
الملك من الأموال عدة لها في دفع معرة أعدائها، وعند طروق نوبتها،
وجروا بأسرهم مجرى الشركاء الذين يجب عليهم أن لا يتحاشوا ولا
يتحاسدوا.

ولله در الرشيد: حين كان في بعض أسفاره، فألح عليه الثلج لينة،
فأذاه فقال له بعض أصحابه: يا أمير المؤمنين أما ترى ما نحن فيه من
الجهد والنصب ووعثاء السفر، والرعية قارة، وادعة، نائمة؟ فقال:
«سكت: للرعية المنام، وعلينا القيام، ولابد للراعى من حراسة الرعية،
وتحمل الأذية».

وإلى هذا المعنى أشار أبو محمد التيمي في قوله للرشيد من قصيدة:

غضبت لغضبتك الصوارم والقنا لما نهضت لنصرة الإسلام

ناموا إلى كنفي لعدلك واسع وسهرت تحرس غفلة النوام

وقد أجمعت العقول على ما أقول، وشهدت البصائر، بأن من عظم
ظل الله في أرضه، والمؤمن على حقه، واليد المبسوطة على خافقه،
وسمع له وأطاعه ووالاه وشايعه، حمد يومه وغده ورعا من العيش
أرغده، ومن حاد عن كلمته وحال عن طاعته، كتبت عليه الذلة
وأعربت به الشقوة، ثم صِلَى بحر السيف قبل حَر النار وحصل على
خسران الدارين، ذلك هو الخسران المبين.

فصل

مما نطق به القرآن من ذكر الملوك

فقد قرن الله طاعة الملوك بطاعته وطاعة رسوله فقال تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾
(النساء / ٥٩).

وذكر نعمته في استخلافهم فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ
الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ (الأنعام / ١٦٥).

وقال حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿يَنْقُومِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا
مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة / ٢٠).

وقال وقد بعثه وأخاه إلى أطغى الملوك وأغواهم: ﴿أَذْهَبَا إِلَى

فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٤﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ يَعْتَدِرُكَ وَتُنْتَحِشِي ﴿٤٥﴾ (طه)
(٤٤، ٤٣).

وكان يحيى بن معاذ إذا قرأ هذه الآية يقول : إلهى هذا رفقك بمن يدعى الربوبية، فكيف بمن يقر لك بالعبودية؟

وقال عَزَّ من قال: ﴿ قُلِ اَللّٰهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ (آل عمران ٢٦) فدلّ بانتقال الملك من أمة إلى أمة وخروجه من أسرة إلى أسرة على أنه يقع بقصد من الحكيم - جلّ ثناؤه - وهو فيه على سبيله في ارتياد الأصلح وإيثار الأعداء، وصار إقراره الملك في نصاب ونزعه إياه من آخر من الأمور التي يفعلها الله بحكمته ويعتمد بها مصالح بريته.

فصل

في تعظيم الناس الملوك على الدهر وإفراط بعضهم

على بعض في إجلالهم حتى اتخذوهم آلهة من دون الله

بلغ من الإفراط في تعظيم الملوك وإجلالهم في الجاهلية والإسلام، لما رأوهم يحبون ويميتون ويرفعون ويضعون، يولون ويعزلون ويعطون ويحرمون أن فتنوا بهم وجروا مجرى الغوغاء والغواة في اتخذوهم آلهة وأرباباً يعبدونهم كما يعبد الله الخلاق الرزاق الواحد القهار، ورضى بذلك غير واحد من جهلة الملوك: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِيعَةٍ أَنْ ءَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُخَيِّئُ وَيُعَمِّتُ قَالَ أَنَا أُخَيِّئُ وَأُعَمِّتُ ﴿ (البقرة: ٢٥٨) وقال فرعون ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿ (الذريات: ٢٤) وزين لهم هذه الدعوى الشيعة قوم من كفرة الفلاسفة وفسقة أهل الأهواء والبدع وشياطين الإنس، فقالوا في بعض مقالاتهم ورفاعاتهم إنَّ روح الباري - سبحانه - تجلَّ في الملك فيعبد إلى أن تزول عنه وتجلَّ في غيره، ومنهم من يقول إنَّ الملك من ملوك الأرض لا يخلو من جزء يجل فيه من روح الباري، ثم يكون فخامة سلطانه، وعلو شأنه، بحسب ذلك الجزء في القلة والكثرة والزيادة والنقصان. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وكما زعموا أن الجزء من حسن صورتهم ونوره يجل في الغلام الصبيح والجارية الوسيمة إلى أن ينتحى الغلام وتكبر الجارية فيزول ذلك عنهما، ويلغى أن قوماً من الصوفية يعتقدون هذا المذهب الرديء. ويرون هذا الرأي المستحيل، ويقال لهم: الحلولية.

وفي ذلك يقول ابن نباتة السعدي متغزلاً:

نفسى فداؤك من بدرٍ على غصن تكاد تأكله عيناي بانظر
إذا تفكّرتُ فيه عند رؤيته صدقتُ قولَ الحلوليين في القدر

وفي تجويز الحلول يقول أبو علي محمد بن الحسن الحائمي -
والحديث ذو شجون:

لى حبیبؑ لو قیل ما تمنى
ما تعدیته ولو بالسنون
أشتهى أن أحل فی كل جسم
فأراه بلحظ كل العیون

وكان المقنع - لعنه الله - تجرأ فی طریق الحلولین حتی ادعی
الإلهیة؁ ودعا الناس إلى عبادته؁ وكان یقول فی دعواه إن الله تعالى خلق
آدم فتحول فی صورته؁ فلما قبضه تحول فی صورة نوح؁ ثم جعل
یتحول فی صورة الأنبیاء والملوك حتی كان آخرهم أبو مسلم؁ فمما قُتل
تحول إلى هاشم - یعنی نفسه - وتابعه خلق من ضلال الناس بما وراء
النهر؁ فاشتدت شوکته وعظمت فتنته؁ حتی أهلكه الله تعالى فی أيام
المهدی فكف شره وكفی أمره؁ وقد بقيت إلى الیوم بقية من أتباعه بما
وراء النهر یقال هم "المیضة" وللولاة علیهم خراج وضریبة.

وكان قوم من الریونذیة افتتنوا بأبی جعفر المنصور؁ فخرج یوماً من
سرادقه فرأى قوماً منهم یسجدون له؁ ویدعونه كما یدعی الله تعالى؁
فأنكر علیهم واستتابهم فلم یتوبوا؁ ولم ینوبوا فأمر بقتلهم؁ فقتل
بعضهم؁ ونجا بعضهم وقد رجعوا عن رأیهم فخرجوا علیه بغتة؁
ووضعوا السیوف فی أصحابه؁ فكانت الدبرة علیهم وحاق المكر
السعی بهم وانقضى أمرهم.

وقد كان عرض مثل ذلك لأمر المؤمنین علی - علیه السلام - إذ
كفر قوم من الغلاة فی التشیع فقالوا له: أنت إلهنا ومعبودنا؁ فلما

زجرهم ولم يتزجروا وأصروا على ضلالتهم أمر قنبراً - مولاه
بإحراقهم؛ ففي ذلك يقول عليه السلام:

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أَجَجْتُ ناري ودعوت قنبرا

وكان الناس في زمان الأكاسرة يدعونهم الأرباب؛ ويقولون على
أنفسهم بالعبودية، ولا يتجاسرون على أن يلبسوا ما يلبسه الملك من
الثياب أو يركبوا ما يركبه من الدواب أو يطعموا ما يطعمه من الطعام
والشراب، وينزلونهم عن كل علق نفيس يقع بأيديهم.

ومن آداب خدم الملوك، أن يقتدوا بهم في إثارة الملوك بكل ما
يصلح لهم ويليق بهم. وإلى هذا ذهب عمرو بن مسعدة في قوله
للمأمون، وقد كان رأى تحته فرساً رائعاً ينظر إليه نظر مستحسن له،
معجب به، فقاده عمرو إلى حضرته، وكتب إليه بهذه الأبيات:

يا إماماً لا يُدانى به إذا عُبد إمام

فَظِلَّ النَّاسُ كَمَا يَفْضُلُ نَقِصَاناً عَام

قَدْ بَعَثْنَا بِجِوَادٍ مِثْلَهُ لَيْسَ يُرَام

وَجْهَهُ ضَبِغَ وَلَكِنْ سَائِرُ الْجَسَمِ ظِلَام

وَالَّذِي يَصْلَحُ لِلْمَوْلِ لِي عَلَى الْعَبْدِ حَرَام

فصل

فى كون الملوك أسباباً لظهور

ثمرات العلوم والآداب ولطائف الصناعات

من حسن آثار الملوك، ويمن حدودهم، واتصال السعود بهم، ووقوف الآمال عليهم وانصراف الرغبات إليهم، أن حكماء البلاد وعلماء الملك ورؤساء الصناعات يخدمونهم بنتائج أفهامهم ويتقربون إليهم بثمرات عقولهم ويتأنقون فيما يستخرجونه أو يصنفونه بأسمائهم؛ فلا تكاد تحصل غرة كريمة أو حكمة بديعة أو هندسة غريبة، إلا إذا كانوا المقصودين بها والمرجوين لارتضاءها، فلولا الأفاضل من سلف الملوك لصاعت علوم كثيرة وبطلت حكم جليلة.

وقد كانوا يفرغون الحكماء لشئونهم، ويجرون عليهم كفاياتهم، حتى نظروا بأنفس مجتسعة، وقوى وافرة، وأذهان فارغة، فاستخرجوا الآلات والأدوات والملاهي التي تكون جماماً للنفس وراحة بعد الكد وسروراً يداوى فرح الهموم، فصنعوا من المرافق وصاغوا من المنافع، كالقرسطونات وكأصناف المزامير والمعازف، واستخرجوا من العلوم كالطب والحساب والهندسة والتنجيم واللحون وآلات الحروب كالمجانيق والعدادات والدبابات وآلات النفاطين وغير ما يطول ذكره.

ولهذا من الشأن قالت أم الإسكندر في دعائها له: رزقك الله حظاً يخدمك له ذوو العقول، ولا رزقك عقلاً تخدم ذوو الخطوظ.

ولما جاءت دولة المغرب بملوك الإسلام، كانوا أسباب الكتابة
الفائقة والبلاغة الرائقة والأشعار السائرة والكتب الفاخرة النادرة،
فلولاهم -- والروساء المتصلون بهم والمتصرفون على أعمالهم -- لماتت
خواطر الكتاب والشعراء وصدت طباع العلماء والحكماء وانعقدت
اللسن الخطباء والقصحاء؛ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومن السعادة قُرب شخص الشاهد.

فصل

في فضل السلطان والملوك،

عن النبي ﷺ والسلف:

قال ﷺ:

"السلطان ظل الله في أرضه، فمن أطاعه فقد أطاعني، ومن عصاه
فقد عصاني".

وقال عليه السلام:

"السلطان لا ترد له دعوة".

"الإمام العادل يظّله الله بظّله، يوم لا ظل إلا ظله".

وافتخر - عليه السلام - بأنوشروان العادل فقال:

"ولدت في زمن الملك العادل".

وكان عثمان بن عفان يقول:

"ما يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن".

وقال حذيفة بن اليمان:

"ما سعى قوم ليذنوا سلطان الله، إلا أذلهم الله في الدنيا، مع ما لهم في الآخرة من الخزي".

وكان عبد الله بن مسعود يقول:

"لا بد للناس من وِزْعة".

وقال بعضهم:

من سب سلطاناً كساه الله يوم القيامة حلة من نار، إنما عليكم ما حملتم وعليهم ما حملوا، فعليهم العدل، وعليكم السَّمْع والطاعة.

وقال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد، ما تقول في السلطان؟

فقال:

ما عسيت أن أقول في قوم يلون من أمورنا بخمسة: الجمعة، والجماعة، والفىء والثغور والحدود، وما يستقيم الدين إلا بهم وإن جاروا وظلموا، ولما يصلح الله بهم أكثر مما يفسد.

وكان دانيال النبي - عليه السلام - يمشى تحت ركاب الملك أربعة أميال، فقيل له: أتمشى تحت ركابه وأنت نبي؟ فقال: "إنى أفعل ذلك رجاء أن أكلّمه بكلام يدفع الله تعالى به عن الناس ويتفعمهم".

وكان الفضيل بن عياض يقول: لو كانت لى دعوة مستجابة لصيرتها للسلطان. قيل: ولم تقدّمه على نفسك؟ قال: إن

دعوتى لنفسى لا تنفع غيرى، وإذا كانت له، انتعشت البلاد بعدله
وإصلاحه.

فصل

فى طاعة السلطان

فى الخبر: "من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة، مات ميتة
جاهلية".

وقرأت فى أخبار أنوشروان العادل أنه نظر إلى بزروجر وهو
يوصى أحد حاشيته، فقال له: بم أوصيته؟ قال:

قلت له أطيع ولى نعمتك فيما أمرك به ونهاك عنه كطاعة من أنشأك
ورزقك؛ فإن طاعة من ملكه الله تعالى على خلقه مقرونة بطاعته
وطاعة الله توجب الرحمة، وطاعة الملك توجب الإفادة.

فقال أنوشروان: لا يزال هذا الملك محروساً ما دام فيه مثلك.

وكان أبو بكر بن عياش يقول:

لم تقترب العامة إلى الملوك بمثل الطاعة، ولا العبيد بمثل الخدمة،
ولا البطانة بمثل حسن الاستماع.

وما أحسن وأوجز قول أبرويز:

أطع من فوقك، يطعك من دونك.

وقلت فى كتاب "المبهيغ":

من أطاع السلطان فقد أطاع الرحمن، ومن عصى السلطان، فقد أطاع الشيطان.

وفيه:

إذا مددت يدك بالمبايعة فاعقد عقيدتك بالمطاعة.

فصل

لطائف وطرائف من الآداب في أجلاء الملوك

بينما يزيد بن شجرة يسائر معاوية، ومعاوية يحذّثه إذ أصك وجه يزيد حجر عائر فأدماه، وجعل الدم يسيل على ثوبه، وهو لا يمسه فقال له معاوية:

لله أبوك! أما ترى ما نزل بك؟ فقال: وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذا دم وجهك يسيل على ثوبك، فقال:

أَعْتَقْتُ مَنْ أَمْلِكُ إِنْ لَمْ يَكُنِ السُّرُورُ بِإِقْبَالِكَ عَلَيَّ، وَالشَّرَفُ بِمَحَادَثَتِكَ، أَلْيَانِي عَمَّا مَسَنِي حَتَّى نَبْهَتَنِي عَلَيْهِ، فَأَعْجَبَ بِهِ مُعَاوِيَةُ وَزَادَ فِي عَطَائِهِ.

ويحكى مثل ذلك عن بكر الهذلي أنه كانوا يوماً عند أبي العباس السفاح، وأبو العباس يحذّثه، فعصفت الريح، فأذرت طشتاً من سطح إلى صحن مجلس أبي العباس السفاح، فارتاع من حضر، وانزعجوا لذلك، ولم يتحرك الهذلي، ولم تزل عينه مطابقة لعين أبي العباس فقال له:

ما أعجب شأنك يا هنلى! لم يرعك ما راعنا!
فقال:

يا أمير المؤمنين إنك خصصتني بكرامتك في إقبالك على حتى مال
إليها قلبي واشتغل بها فكري، فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ما
حسنت بها.

فقال أبو العباس:

لئن عشت لأعرفن حقك، ولأرفعن قدرك.

ومن أخبار الصغاني المشهورة أنه كان يوماً بين يدي السعيد نصر
ابن أحمد وهو يحادثه، فضربت فخذ أبي على عقرب، وقد كانت دبت
إلى سراويله، وما زالت تعيد الضربات حتى استفرغت سمها،
وأبو على لا يبالي بها، ولا ينزعج لها، فلما عاد إلى منزله ونزع ثوبه
عُدَّت الضربات فبلغت سبع عشرة، وبلغ السعيد الخبر فتوجع لما
أصابه، ثم قال له بعد ذلك:

يا أبا على عَزَّ ما دهاك لم تقم لتزيل عن نفسك تلك البلية؟
فقال:

إذا لم أصبر في مجلس الملك على أذى عقرب، فكيف صبري إذ
أعنت عنه على نيران الحروب وصواعق السيوف؟

وسمعت أبا نصر سهل بن المرزبان يقول:

قرأت في أخبار الوزراء لابن عبدوس أن المأمون خاطب يوماً

بعض حاشيته في شيء، فاحتجوا فيه وزادوا في الصوت، فلما خرجوا أمر بهم الفضل بن سهل فقوموا بالضرب، فسأله المأمون عن ذنبهم فقال:

إنهم لم يتأدبوا بأدب الله تعالى؛ فإنه يقول:

﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ (الحجرات: ٢) وقد رفع هؤلاء أصواتهم فوق صوتك.

وكان أنوشروان يقول:

إذا رفعت الأصوات فوق صوت الملك، فقد خلع، وإذا قال في شيء لا فصيل له نعم أو قال نعم ففصيل له لا فقد قُتل.

ومثل ذلك ما يروى أن فتى من الهاشميين دخل إلى المنصور وهو يتغدى، فدعاه إلى غدائه فأبى، فلما خرج عدل به الربيع إلى بعض الممرات وأمر بضربه مائة عصا، وحمل الفتى إلى منزله مشحناً. فلما كان من الغد اجتمع أهله إلى المنصور يشكون الربيع، ويخبرون المنصور بما أقدم عليه من ضرب فتاهم، فقال المنصور: ما كان الربيع ليفعل شيئاً غير واجب، فدعاه به، وقال: يا ربيع لم ضربت ابن عمي ولم آمرك بذلك؟

فقال: يا أمير المؤمنين لأنك دعوته إلى مائدتك، فامتنع من الإجابة،

ولم يعلم أن موائد الملوك تحضر تشرفاً، لا تشبعاً، فأحبيت أن أؤديه
لثلاثا يعود لمثلها.

وسمعت أبا جعفر محمد بن موسى العلوى الموسوى الطوسى
يقول: إن رسم النشرات للملوك وغيرهم من الكبراء والرؤساء
مأخوذ من أدب الله تعالى فى شأن رسوله - عليه السلام - حيث قال:

﴿ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ
صَدَقَةٌ ﴾ (المجادلة: ١٢) فكان اليوم من سعى إلى الملك أو الرئيس
بوسيلة فيقدم عليه ويقدم نثاراً بين يديه إنما يصدق بذلك عنه شكر الله
على ما يسر له من لقائه سالماً فى نفسه وحاله ويسأله أن يرى فيه رأيه
من التصديق أو غير ذلك، ولو تولى إعطاءه الفقر لكان الشك قد يقع
فى ذلك، والقلب يترجح بين التصديق والتكذيب.

وفى كتاب الوزراء لابن عبدوس أن محمد بن عبد الملك
وزير المعتصم والواثق قرأ يوماً كتاباً على الواثق ليشهد فيه على نفسه،
فلما بلغ الموضع الذى فيه فى صحته من عقله وبدنه وجواز أمره له
وعليه قال أبو الوليد بن أحمد بن أبى داود: أيقال للخليفة مثل هذا؟
فقال له محمد: وما أنكرت من هذا؟ وهل يكتب فى مثل هذه الكتب
إلا هكذا؟

فقال أبو الوليد: ينبغى أن يكون بين الخليفة وبين العامة فرق فى كل
شئ! فقال له الواثق: وكيف يكتب؟ فقال يكتب: فى صحة من

جسمه، وعلو من رأيه وتوفيق من ربه، ففجعل محمد، وأمر الواثق
لأبى الوليد بمائة ألف دينار.

وقد حكى عن عبيد الله بن سليمان في كتاب كتب على المعتضد أنه
أنكر مثل ذلك، وجعل مكانه في صحة من جسمه وأصاله من رأيه.

وكان محمد بن عبد الملك إذا احتاج خاتم الخلافة؛ ليختم به الكتب
وغيرها دعا به، فإذا وقعت عينه عليه، وهو في درج ذهب مهين له،
مغشى بحريز، قام إليه واستقبله خطوات وأخذه من درجه فقبّنه ثم
ختم به ما يريد، وردّه إلى مكانه وسلمه إلى خازنه، وشيعه خطوات إلى
أن يغيب عن عينيه جلالاً وإعظاماً لخاتم الخلافة.

ويروى عن عثمان بن عفان أنه كان يقول: ما مسست فرجى بيمينى
منذ بايعت به النبي ﷺ.

وسمعت جدّى أبا علي الثعلبي يقول: سمعت نصر بن طز الشرايبي
يقول: ما مسست دسماً منذ ولأنى أمير المؤمنين بيت شرابه،
واستخلصنى لنفسه، واستخصنى لسقيه، حتى انتقل إلى جوار ربه.
فقلت: وكيف كنت تتناول المرق واللحوم؟

قال: بالملاعق والبارجيات وربما كنت ألقم، إذا لم تحضر ملعقة.

وسمعت أبا نصر بن أبى زيد يقول: كان الرسم على موائد الملوك
السامانية، إذا قدّم الأرز باللبن أن يتناول كل واحد ممن عليها ملعقة

ذهب، فجمعت يوماً مائدة الأمير السعيد - أو قال مائدة الأمير الحميد - نفرأ من ملوك الأطراف وفيهم أبو سعيد أحمد بن محمد بن عراق، فلما قدّم الأرز باللبن أعطوا ملاعق الذهب على الرسم. فأخذوها وجعلوا يستعملونها سوى أبي سعيد، فإنه أخذها ووضعها بين يديه، فلما قاموا أمر الملك بأن يسأل عن السبب في تركه استعمالها كما استعمالها نظراؤه؟ فقال: كرهت أن أدخل الملعقة في فمي ثم أدخلها في القصعة على مائدة الملك، وكان ذلك مما استحسّن من أدبه، ورفع رسم الملاعق على الموائد بسببه.

obeikandi.com

في صدور من الأمثال والتشبيهات
الملوكية والسلطانية

فصل

في أمثال جارية على السنة الخاصة والعامة
في الملوك والسطان

منها قولهم: جاور ملكاً أو بحراً، وذلك لكثرة منافعهم ومصالحهم
ومرافقتهم للناس؛ فالبحر على ما فيه من الخطر يغنى ويفنى راكبيه
ومجاوريه، وكذلك الملك بحسن آثاره على رعاياه وأصحابه.

وكنتم أنشدت للعطوي هذين البيتين:

مثل سائر من الأمثال	بالأملين والامال
قيل: جاور بحراً وإلا فجاور	ملكاً بأسطاً يد الأفضال
فأجزتها بهذا البيت:	

وجمعناهما بخوارزم شاه	الملك السيد الرفيع المعالي
-----------------------	----------------------------

ومنها قولهم: الملك عقيم، أى لا أرحام بين الملوك وبين أحد؛ لأنهم يجرون على حكم السياسة المرة ويبلغون كل مبلغ من الاحتياط على الملك والمملكة، ولا يقارون أحداً يخافونه على الملك الذى هو أجل الرتب، وأعلى الأحوال - ألد الأشياء، ويصطنون كائناً من كان من أقربائهم وإخوانهم وأبنائهم، ويقتلون أقرب الناس منهم نسباً، إذا أحسوا منهم قدحاً فى سلطانهم.

وكثيراً ما يقتل ابن الملك أباه طمعاً فى مكانه ووراثته سلطانه. ويقتل الملك ابنه إذا رأى منه خلافاً مخافة إياه على نفسه ومملكه.

ومنها قولهم: من ملك استأثر. أى إن الملك يريد كل حسن، وكل علق نفيس لنفسه، فيستأثر به على رعاياه وأصحابه.

وكان المأمون يقول: إن فينا - معشر الملوك - محكاً وحسداً واستشاراً.

وسمعت الحسن بن عبد الحميد يقول: سمعت أبى يقول: سمعت أبا على الصغاني يقول:

من ولى الملوك أخذوا ماله، ومن عاداهم أخذوا رأسه.

ومنها قولهم: الناس على دين الملك، أى يتدينون بمذهبه، ويصدرون عن رأيه، ويحذون على تمثيله.

ومنها قولهم: نلقلوب بدوات، وأسرع الأشياء تقلباً قلب الملوك.

إذا تغيَّر السلطان، تغيَّر الزمان.

عَفُو الْمَلِكِ أَبْقَى لِلْمَلِكِ.

سَكَّرَ السُّلْطَانُ أَشَدُّ مِنْ سَكَّرِ الشَّرَابِ.

شَرَّ السُّلْطَانِ مَنْ خَافَهُ الْبَرَىءُ.

الْمَلِكُ يَبْقَى عَلَى الْكُفْرِ، وَلَا يَبْقَى عَلَى الظُّلْمِ.

الْمُلُوكُ يُؤَدَّبُونَ بِالْهَجْرَانِ، وَلَا يُعَاقَبُونَ بِالْحَرَمَانِ.

إِذَا قَالَ الْمَلِكُ لِعِمَالِهِ هَاتُوا، فَقَدْ قَالَ لَهُمْ خُذُوا.

عَدَلَ السُّلْطَانُ أَنْفَعَ مِنْ خِصْبِ الزَّمَانِ.

مَنْ أَكَلَ مِنْ مَالِ السُّلْطَانِ زَبِيحَةً أَذَاهَا ثَمَرَةٌ.

مَنْ تَحَسَّى مِرْقَةَ السُّلْطَانِ احْتَرَقَتْ شَفَتَاهُ، وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ.

الْمَلِكُ بِالذِّينِ يَبْقَى، وَالذِّينَ بِالْمَلِكِ يَقْوَى.

وَمِنْ كِتَابِ الْمُبْهِيغِ لِمَوْلَفِ هَذَا الْكِتَابِ:

الْأَوْضَانُ حَيْثُ يَعْدِلُ السُّلْطَانُ.

وَبِيعَ السُّلْطَانُ عَلَى قَوْمٍ: نَسِيمٌ، وَعَلَى قَوْمٍ هُمُومٌ وَشُؤْمٌ.

مَا لِلْمَمْلُوكِ وَالْمَطَامِعِ الدُّنْيَا فِي الْمَطَامِعِ الرَّدِيَّةِ.

الْمَلِكُ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَلَنْ يَسْتَقِيمَ أَمْرُ خِلَافَتِهِ مَعَ مَخَالَفَتِهِ.

فصل

فيما يجري مجرى الأمثال من الحكم والآداب الملوكية

قال بزرجمهر: من جالس الملوك بغير أدب فقد خاطر بنفسه.

وكان ابن المقفع يقول: أحق من لا يستخف بحقوقهم: الملوك والعلماء والإخوان؛ فإن من استخف بالملوك ذهب دنياه.

ومن استخف بالعلماء ذهب آخرته.

ومن استخف بالإخوان ذهب مروءته.

وكان يقال: أربعة لا يستقل قلوبها:

السيل والنار والسلطان والعداوة والدين.

وسمعت أبا محمد عبد الله بن إسماعيل الميكالي يقول:

كتب بعض البلغاء إلى بعض الرؤساء في شيء شجر بينهما، ليس يجوز لأحد على أحد حكم إلا حكم الخالق على المخلوق، وحكم السلطان على الرعية، وحكم المالك على المملوك، ولست [أنت] ولا أنا منهم.

ومن فصول ابن المعتز: إذا زادك الملك تأنيساً فزده إجلالاً.

وقال غيره: إذا اتخذك السلطان أخاً، فاتخذته رباً.

وسمعت أبا جعفر محمد بن موسى الموسوي يقول:

كان على - رضى الله عنه - يقول: قبله الوالدين عبادة وقبله الولد
رحمة، وقبله المرأة شهوة، وقبله الأخ مبرة، فزاد فيه الحسن البصرى:
وقبله الملك العادل طاعة.

وكان عبد الله بن طاهر يقول: لا ينبغي للملك أن يظلم وبه يدفع
الظلم، ولا أن يعجل، ومنه يلتمس الأناة، ولا أن يعجل ومنه يتوقع
الجود.

وكان سليمان بن وهب يقول: لا يجتمع عيران في عائلة، ولا أسدان
في غابة، ولا سيفان في غمد، ولا فحلان في شول، ولا أميران في
جيش. فبلغ ذلك عضد الدولة فقال: ولا ملكان في إقليم.

وكان النصاب بن عباد يقول: ينبغي للسلطان أن ينقش قول
أردشير في فص صدره:

لا سلطان إلا برجال، ولا رجال إلا بهال، ولا مال إلا بعمارة، ولا
عمارة إلا بعديل وحسن سياسة.

وكان يقال: السلطان الضعيف شوم، وسلطان تخافه الرعية خير لها
من سلطان يخافها.

وكان يقال أسد حطوم خير من ملك عشم، وملك عشم خير
من فتنة تدوم، وسلطان عادل خير من مطر وابل.

وقرأت للأمير أبي الحسن بن محمد بن إبراهيم بن سيمجور كتاباً
في السياسة فأعجبني منه فصل مرتب معناه في بعض كتب العربية
وهو: كان الناس أحقاء بالكرم، وأقلهم في تركه عُذراً: الملوك لقدرتهم
عليه. وكان الصاحب أبو القاسم يقول:

- تهيب السلطان فرض وكيد، وحتم على من ألقى السمع وهو
شهيد.

- مرضاة السلطان لا تغلو بشيء من الأثان.

وسمعت أبا نصر بن أبي زيد يقول:

من خدم السلطان فهو خادم من جهة، ومالك من أخرى، ومن
خدم السوق فهو خادم من الجهات كلها.

وكان يقال من خدم السلطان خدّمه الإخوان.

وكان أبو الفتح البستي يقول:

أحق الناس من كان على السلطان مُدلاً، وللاخوان مُدلاً.

فصل

في تشبيه السلطان بالبحر والنار

أنشدني عون بن محمد التيمي الهمداني قال: أنشدني الصاحب
لنفسه:

إذا أدناك سلطاناً فرذه
من التعظيم واحذرهُ وراقبهُ
فما السلطانُ إلا البحر عظماءُ
وقربُ البحر محذورُ العواقبُ

ومن فصول ابن المعتز:

- إن كان البحر كثير الماء؛ فإنه بعيد المهوى.

obeikandi.com

فى أخلاق الملوك وعاداتهم
ورسومهم المحموده والمذمومة

فصل

فى فضل العدل الذى هو أفضل أخلاق الملوك

بالعدل استقامت السموات والأرض، وهو عند كافة أهل الملل والنحل وأصحاب الدول من العرب والعجم، قوام الدين، وعمدة الملك، وأس السياسة، بل هو السياسة الكبرى، والفضيلة العظمى، ومن يحصى ما للملك العادل من المحاسن، وما للخلق فيه من المرافق والمنافع ومن يشك فى أنه إذا أثر العدل، واستمر عليه، واشتهر به، وأعطاه حقوقه، ووفاه شروطه، أجله من فوقه من الملوك، وعظمه أكفأه، وهابه أعداؤه، وازداد طاعة له أولياؤه، وأحبه من لم يكن من رعيته؟ فكيف رعيته، ووالاه من لم يره، وشايعه من سمع خبره، وفاز بنعيم العاجلة، وثواب الآجلة. وإذا مال عن العدل، واتسم بسمة الجور، جرت أحواله كلها على الضد مما تقدم ذكره وساءت سياسته. والشأن فى أن العدل أكثر استدراراً للأموال من الجور الذى يؤدى إلى

محققها، ويسد أبواب ارتفاعها، وما أحسن ما قال يحيى بن خالد:
الخراج عمود الملك وما استغزر بمثل العدل، ولا استندر بمثل الجور.
فصول قصار من كتاب المبهج صنعه مؤلف هذا الكتاب في ذكر
العدل وعوده على من يتحلى به من الملوك بصلاح الدارين:
- إذا عدل السلطان فقد اعتدل الخائف، وأمن الخائف واقتصر
الخائف.

- حق الملك العادل على رعيته أن يقتدوه بسنا أبصارهم ومنى
أعمالهم.

- عدل الملك لدينه أحوط، ولدنياه أضبط، ولأوليائه أثبت،
ولأعدائه أكبت.

- أحر بالملك العادل أن يستقر سريرُهُ في سرّة الأرض.

- إذا ملك العادل، زال الروع وأفرخ، وإذا ملك الظالم عشش الشر
وفرخ.

- الملك العادل مكنوف بعون الله، محروس بعين الله.

- كأنك بالملك العادل وقد جرى القضاء على إيثاره، وأخذ له
حسن إيثار بشاره.

- إذا عدل الملك فقد سكن حلة الأمن، ونبس حلة اليمن.

- إذا عقد الملك العادل بالعدل عقيدته، وطوى على الإحسان طويته، فليبشر باجد الأبعد الأسعد.

- إذا امثل الملك أمر الله اثنان بالعدل والإحسان، دانت له أداني البلاد وأقاصيها وافتتحت باسمه قلاعها وصياصيها.

فصل

من كتاب المبهيح أيضاً في ذكر الظلم وذمه وسوء عاقبته

أخلق بالملك الظلوم، أن يصير عظة الرائيين وعبرة الرايين.

- لا كان جناح الظالم بالمحن من وجوه المنح والنواب من أماكن المواهب وبالفتوق من وجوه الفتوح.

- كأنك بدار الظالم، وقد دارت عليها دائرة السوء: أخلق بالظالم أن ينهار في جرف هاو.

- الظالم مخذول وإن حشر وحشد، ووفر العدد، واستجلب المدد وكثر العدد، والعادل منصور وإن تفرد وتجرد.

- من نتائج الظلم قصر المدة، وانحسام المادة، وانقطاع المدد.

- أخلق بالظالم أن يكون مقتسراً وماله مقتسماً.

- حبل الظالم مبتوك وستره مهتوك.

- ظل المال المستثمر من ظلم الرجال، كسحاب تمزقه أيدي الشمال وتفترقه ذات اليمين وذات الشمال.

- مال الظلم قليل المعونة والمغونة، قبيح الذكر والأحدوثة.

- الظلم لا يقال صريعه، ولا يساغ صريعه.

- كَأَنكَ بِالظُّلْمَةِ، وَقَدْ كَبَّوْا عَلَى مَنَاخِرِهِمْ وَتَحَكَّمَتْ سِوْفُ الْحَقِّ فِي مَنَاجِرِهِمْ.

فصل

في المشورة وحسن أثرها، وطيب ثمرها

من أخلاق الملوك الأفاضل المشورة التي هي من أركان السياسة وفرائض المملكة، وكان عمر رضي الله عنه يقول رأى الواحد كالخيط الواحد، كالخيط انفرد، والرأيان كالخيط السَّحِيلِ والثلاثة كالخبل.

وكان الحسن البصري يقول: إن الله تعالى لم يأمر نبيه - عليه السلام - بمشاورة أصحابه لحاجة منه إلى آرائهم، وإنما أراد أن يعلمنا ما في المشورة من الفضل؛ حيث قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال حكاية عن الملكة بلقيس: ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢].

وقال الأصمعي قلت لبشار بن برد: يا أبا معاذ، والله ما سمعت أحسن من قولك في المشورة:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافى قوة للقوادم

فقال لى: أو ما علمت أن المشار بين إحدى الحستين؛ بين صواب
يفوز بشمرته، أو خطأ يشاركه فى مكروهه.

فقلت له: أنت فى هذا الكلام أشعر منك فى شعرك!

وأحسن ما سمعته فى المشورة قول أبى عثمان الجاحظ:

الشورى لقاح العقل، ورائد الصواب، والمستشير على طرف
النجاح.

- استشارة المرء برأى أخيه من عزم الأمور وحزم التدبير.

- وقد أمر الله بالمشورة أكرم الخلق فقال لرسوله الكريم فى كتابه

الحكيم: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران
١٥٩].

ومن يتيمة ابن المقفع فى نصيحة الملك:

لا يقعن فى روعك أنك إن استشرت ظهرت منك للناس الحاجة

إلى رأى غيرك؛ فإن أحسن الذكر عند الناس أن يقال إن الملك لا ينفرد
برأيه.

وقال مؤلف الكتاب:

وأكثر الملوك يرون المشاورة فرضاً واجباً، وحقاً لازماً للملك الذى

يستخدم به العقول، ومن أجله يرتبط الحكماء ونصحاء الوزراء؛ إذ هو أعظم الأشياء، وأعلى الأخطار، وأجل المراتب، وأولى الأحوال بأن يجعل لها الآراء الصائنة، ويستعان فيها بالأذهان الثاقبة، وله شوائب، وعوارض، ونوائب، لا تداوى إلا بشمرات الألباب، ونتائج الأفكار. وليس الملك بمشاورة حذاق الأطباء في حفظ صحته ومروءة عيته، أجدر منه بمشاورة ثقات الحكماء في تحصين ملكه ومداواة ما يعرض من رأيه، ومما يعد في محاسن الملوك السامانية، ارتباطهم بمشايع يجمع كل منهم إلى الحنكة: التحصيل وإلى التجربة: الرأي الأصيل وإجراؤهم عليهم الأرزاق السنوية ومواصلتهم ضم بالصلوات الجزيلة لا لشيء غير الاستئضاء بعقولهم في ظلم الأمور والرجوع إليهم في مشكلات التدابير، فإذا استشاروهم في الخطوب العارضة، والأعداء الناجمة خفروا آراءهم، وأجالوها، وأجادوا أفكارهم، وأطالوها حتى يحصلوا على لب الصواب ومحض الرأي، ولم تزل دولتهم غضة العود معتدلة العمود، ما دامت تلك العادة من سيرهم، ورسومهم المذكورة فحين أخلوا بها واستبد وزراءهم بالآراء الفاسدة كما قال أبو محمد السلمي:

قد كان آراؤكم فيما مضى كرة كأنما صنعتها كسفة خراط
فالآن سبعون رأياً من وزيركم في السوق لا تُشترى منكم بقيراط

دب الفساد في ملكهم، وسعى وشب ونها ولحقه الالتيث،

وحدثت منه الأحداث حتى مرضت دولتهم، فاعضل دأؤها وأعوز شفاؤها، وإذا أراد الله رجلة نعمة عن دار قوم أخطأوا التدبير.

ومما عيب به عبد الله بن طاهر مع وفور فضله، وكمال عقله، وعدله، وحسن سياسته، وجميل سيرته، أنه كان يترفع عن المشاورة يقول: لئن أخطأت ألف خطأ أحب إلى من أن أستشير؛ فاختطأ بعين النقص والحاجة.

وما أبعد رأى عبد الملك بن صالح الهاشمي من الصواب، وأقرب من خرق الإجماع في قوله:

"ما استشرت أحداً قط إلا تكبر عليّ، وتصاغرت نه، ودخلته العزّة، ودخلتني الذلّة، فإياك والمشاورة، وإن ضاقت بك المذاهب، واستبهمت عليك المسالك وأذاك الاستبداد إلى الخطأ الفادح"، لا جرم أنه لاستبداده برأيه، وترك مشاورة نائحه، أقدم على ما أوحش الرشيد، فحبسه حتى أطلقه الأمين بعد موته.

فصل

في العفو والأخذ

العفو من أفضل الأخلاق للملوك الأفاضل، وأعودها عليهم في العاجل والآجل؛ لأمر ما قيل "عفو الملك أبقى للملك" وذلك أن الملك إذا تكرم بالعفو عن المذنبين من أصحابه وقواده ممن لم يتدحوا

في ملكه، ولم يتعرضوا لحرمة، ولم يقدموا على إفشاء سرّه اشتدّت محبتهم له وظهرت موالاتهم إياه، وازدادت شفقتهم عليه، فبدلوا الجهد في مناصحته والذبّ عن سلطانه، وامثال أوامره، وإذا لم يأخذ نفسه بالعفو وأخذته العزة بالإثم وأسرف في العقوبة والقتل فسدت نيّاتهم، وساءت آراؤهم فسعوا في هدم ملكه، والإتيان على نفسه، وما أكثر أساطير الأولين في ذلك.

وقليل النعيان أصدق عندي من كثير يقص في الأنبياء: هذا قابوس ابن شمكير شمس المعالي بالأمس جعل السياسة كلها في إراقة الدماء وإخافة الأولياء وكان لا يعرف العفو، ولا يرى التجاوز، ويدّيم القتل على التهمة، حتى خافه كل برىء واستحال عدو كل ولى، وتساوت أقدام قواده وحاشيته وبطانته في الاستيحاش منه، والانتواء على كل مكروه، فصاروا يبدأ واحدة في خلعه وإزالة أمره، ومع الذي سقت الكلام إليه، فالقتل في أماكنه كالعفو في مواطنه والقتل أنفى للقتل كما قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وقد أحسن أبو الطيب المتنبي في قوله:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدّم

ومن لم ينفعه الصفح الجميل، نفعه السيف الصقيل.

وقال بعضهم: إذا الخير لم ينفعك، فالشر نافع، والسر في إيقاع الملك كلاً من الأمرين موقعه وإصابته موضعه.

وما ينبغي للملك أن لا يعرف بلين الجانب وسلامة الصدر وخفة السطو ودوام العفو فتقل الهيبة له، وتكثر الجرأة عليه، كما لا ينبغي أن يعرف بغلظ القلب، والبسط في البطش، والإسراف في القتل، فتنبو القلوب عنه وتسوء الظنون به، وتدب الغوائل إليه.

ومن الملوك من في طبعه العفو عن المذنبين كالمؤمن، فإنه كان يقول: أنا والله أئذ العفو؛ حتى أخاف ألا أوجر عليه، ولو علم الناس مقدار محبتي للعفو لتقربوا إليّ بالذنوب.

ومنهم من لا يعرف من العقاب إلا ضرب الرقاب لما في طبعه من محبة سفك الدماء، وقل من كان كذلك إلا كان القتل عاقبة أمره كأحمد بن إسماعيل الساماني ومرداويج بن زياد الجبلي وغيرهما من أجلة الملوك.

فينبغي للملك إذا عثر من أصحابه على جريمة، أن يتثبت في أمره، ويأمر بحبسه إلى أن يسكن عنه الغضب ساكنه، فينسب ما يكون منه حينئذ إلى الرأي الصائب لا إلى غلبة أمضاها وحاجة من حاجات الانتقام في نفسه قضائها.

هذا ومن أسرار الملك، أن الملك لا يستحكم هيئته، ولا تكمل سياسته، ولا يفخم سلطانه، ما لم يفتك برجل كبير من قواده، ورأس

عظيم من رؤساء عساكره، إذا شتم منه رائحة العصيان، وشام فيه بارقة الخلاف، كما فعل عبد الملك بن مروان بعمر بن سعيد، والمنصور بأبى مسلم، وعبد الملك بن نوح، بالفتكين، والسلطان المعظم ناصر دين الله وحافظ عبد الله على القريب وغيرهم من الملوك، وغيرهم من الجبابرة؛ فإنه إذا ذهب مع الحزم في ذلك، وأمضاه بعد التأني والروية، وأخذ الأهبة، وبعد الاستخارة والاستشارة، اتعظ زيد بعمر بن سعدت مطارح الهيبة والحشمة، واستقامت قناة المملكة.

فصل

في مدح الجود وذم التبذير

معلوم أن الجود من أفضل الأخلاق وأعظمها وأشرفها لأنه من صفات الله سبحانه، وأحق الناس به الملوك؛ لقدرتهم عليه، وتوغلهم في ذرى المعالي، ووقوف جلائل أمورهم، ومعاضم شئونهم عليه.

وكان يقال: إذا جمع الملك العادل، العدل الشامل، والمال الوافر، والجود الغامر، والوزير الناصح عسر على الملوك إدراك شأوه.

ومما أستحسنه غاية الاستحسان في السياسات قول بعض الحكماء: ما كان في الملك، فلا ينبغي أن يكون فيه خمس خصال: البخل والكذب والحدة والحسد والجبن، فإنه إذا كان بخيلاً لم يحبه ولم يناصحه أحد، ولا يصلح الملك إلا بالمحبة والناصحة، وإذا كان كذوباً لم يرج وعده، ولم يخش وعيده.

ولا يطرد أمر الملك إلا بالرجاء والخوف، وإذا كان حدياً مع القدرة
هلكت الرعية، وإذا كان حسوداً لم يشرف أحداً، ولم يرفع منه، ولا
يصلح الناس إلا على أشرفهم، وإذا كان جباناً اجترأ عليه عدوه،
وضاعت ثغوره.

وذاكرت يوماً بنيسابور أبا الفتح عنى بن محمد البستي الكاتب
بقول في كتاب المنهج: بخيل الملوكة دخیل فیهم، فعجب به، ثم
أنشدني لنفسه:

إذا ملك لم يكن ذاهبة فدعه، فدولته ذاهبة

وسمعه يقول: ترجمت يوماً للأمير ناصر الدين أبي منصور
سبكتكين قول بعض الحكماء: ينبغي للملك أن يكون سخياً لا يبلغ
التبذير، وحافظاً لا يبلغ البخل، وشجاعاً لا يبلغ التهور، ومحترساً لا
يبلغ الجبن، وقائلاً لا يبلغ الهذر، وصموتاً لا يبلغ العي، وحليماً لا يبلغ
العجز.

قال: فاستحسنه جداً، وكان كثيراً ما يستعبدنيه لإعجابه به، وإيثاره
أن تبني أموره عليه.

قال مؤلف الكتاب: كما أن الجود من أخلاق الملوك المحمودة:
فالتبذير من عاداتهم المذمومة لأن المال للملوك فريضة ولرعية نافلة،
وقوة الملك بالجند، وقوة الجند بالمال، ومن أعظم آفات الملك أن

يركب افرى في الإطلاقات، والإنفاقات، وتوسعة الإقطاعات،
وتحكيم السكن في تفخيم الصلات والسفر في إتلاف المال على البنيان،
وبذل الرغائب في أثمان القيام، فيعذر عليه أن يدخر ذخيرة لنوائبه، أو
يستفضل شيئاً من ارتفاع مملكته، فلا تزول مؤونة تزيده، ومواده تنقص
حتى ينهتك السر، وتزول الحشمة، وتسقط الهيبة، ونعوذ بالله من
الجور بعد الكور.

وفي يتيمة ابن المفقع: ليس إعطاؤك من هو أهل للعطاء، بأقرب إلى
الرشد، ولا أعظم للأجر، من منعك مستحقاً للمنع.

وكان الرشيد يقول: لم أمدح بأحب إلى من قول أبي العتاهية:

إنَّ لله خازناً من بنى العباس ففى الأرض موطئاً للسماح
عارفاً للعطا والمنع يستوى فيهما فى مواضع الإصلاح

قال بعض السلف: لو كان شيء يشبه الربوبية، لقلت: إطعام
الناس، وما أقل من يوصف من الملوك بهذه المكرمة انشريفه، وما أكثر
من يجود منهم بالصلوات الجسام ويبخل بأدنى الطعام.

فصنهم محمد الأمين المخلوع وهو خليفة ابن خليفة ابن خليفة ابن
خليفة، وكان يهب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ويبخل
بالرغيف الواحد على ندمائه ويسقيهم على الريق طول أيامه.

ويحكى أن بعضهم ممن بلغ به الجود كل مبلغ، وشاع عليه أثر

الشرب في مجلسه من غير أكل، اشترى سرّاً من بعض الخدم بزماءورد
بمائة دينار وأكلها عند دخوله المتوضأ، فلما خرج وعاد إلى مكانه أنكر
عليه المخلوع ثمناسكه، وقال: قد رجعت بغير اللون الذي ذهبت به،
وما أشك في أنك أكلت شيئاً ثم أمر به فقتل.

ومنهم أبو دُلف القاسم بن عيسى، فإنه أول من كان يهب - بعد
الخلفاء - لشاعر من الشعراء مائة ألف درهم، وكان من الجود والكرم
بحيث يضرب به المثل، وكان مع ذلك لا يمكنه أن يكتحل من يكسر
رغيفاً له بين يديه، ويعرف هذا العيب الشنيع من نفسه وفي طبعه
فيقول: دعوت الله ستين سنة أن يذهب عني البخل بالطعام فما
استجاب دعوتي بعد، وأرجو أنه يفعل.

وفيه يقول الشاعر:

أبو دُلفٍ يحود بألف ألفٍ ويبخلُ بالطَّيف من الرغيف
أبو دُلفٍ لم يطبخه قنارٌ ولكن دونه قرع السيوف

وقد وقع الاتفاق وتقرر الإجماع، وشاعت الأخبار، وشهدت
الآثار، بأنه ليس اليوم في ملوك العصر أوسع رَحلاً وأخصب وجهاً
وأدوم قرى وأظهر فيه مروءة، وأجمع بين الإنعام التام، والإطعام العام
من مولانا الملك حرس الله دولته، وهذه إحدى فضائله المشهورة
ومحاسنه الكثيرة، فأدام الله له جمال هذه الخال ما تأدت البكر إلى
الأصال.

فصل

في كبر الهمة

أولى الناس بكبر الهمة وارتفاعها الملوك، وما شئ أقعد بالملك من صغر همته، وقد تقدم من أقاويل الملوك الدالة على كبر هممهم، وارتفاع أخطارهم، ما فيه غنية عن الإعادة.

وأحسن ما سمعت في بعد الهمة قول بعض السادة لابنه: يا بني لا تكونن لك همة دون الأمد الأقصى في طلب دين أو دنيا؛ فإن العاقل لا يرضى لنفسه إلا بإحدى منزلتين: إما أن يكون في أبعد الغايات من طلب الدنيا أو في الغاية القصوى من الترك لها.

وأحسن ما سمعت في المدح قول بعضهم:

له همم لا تنتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر
له راحة لو أن معشار جودها على البر صار البر أندى من البحر

وكانت العجيم تقول في بعد الهمة وكبرها يكون النصب، فجاء أبو الطيب المتنبى فكسى هذا المعنى الشريف شعاراً أئيقاً من عبارته، فقال: لسيف الدولة، وأحسن ما شاء وأجاد:

كل يوم لك ارتحال جديد ومسير للمجد فيه مقام
وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

وحدث المبرّد قال: أمر المنتصر يوماً لرجل من المرابطين بخمسة درهم، فقال له أحمد بن الخصيب: لا ينبغي للملك أن يجري على لسانه وقلمه عدداً أقل من الألف.

ورفع إلى المأمون أن العباس ابنه قال لوكيله: رأيت في الرصافة بطلاً هشاً فخذ لنا منه بنصف درهم؛ فاسترجع المأمون وقال: إذ قد عرف أن الدرهم نصفاً فلن يفلح أبداً!

وشتان ما بين العباس وأبيه المأمون: فقال المأمون أهدوا له ما يكون مائة ضعف لها ليعلم عز الإسلام ونعمة الله عليّنا، فامتلأ أمره، فقال وقد أعدوها: ما أعزّ الأشياء عندهم؟ قالوا: المسك والسمور والفيروزج. قال: فكم في الهدية منها؟ قالوا: مائة رطل من المسك، ومائتان من جنود السمور، ومائتان من خواتم الفيروزج، فقال: بلغوا بكل منها ألفاً وضموها إلى سائر الأشياء ففعل.

فصل

في كتمان السر

من أخلاق الملوك كتمان السر لما في ذلك من الحزم والاحتياط على الملك، والأصل فيه قول النبي ﷺ: "استعينوا على حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود".

وكان بعض ملوك فارس يقول لقواده ووزرائه: صونوا أسراركم؛ فإنه لا سرّ لكم إلا في ثلاثة مواضع: مكيدة تحاول أو منزلة تراول أو سريرة مدخولة تكتم، ولا حاجة بأحدكم إلى ظهور شيء منها.

وأوصى ملك صاحب جيشه فقال: اعمل على أن كل من في
عسكرك عين عليك لعدوك.

وكان يقال من وهن الأمر إعلائه قبل إحكامه، ومن ضاع قلبه
أُسع لسانه.

وكان بعض الملوك يقول: إذا تكلمت بالكلمة ملكتنى، وإذا لم
أتكلم بها ملكتها.

وكان معاوية يقول أُعِنْتُ على رضى الله عنه بخلاف منها أنه
كان رجلاً ظهراً علناً أى لا يكتتم سرّه بل يظهره ويعلنه، وكنت كتوماً
لأمرى.

وسمعت أبا الفتح البستى يقول: لم أر ملكاً أميناً أجمع لألات
الرئاسة من الأمير ناصر الدين أبى منصور سبكتكين رضى الله عنه،
وكان من أغلب خصال الملوك عليه كتمان السرّ، وترك تأخير عمل
اليوم إلى غد.

فصل

فى جمع الملك بين الخير والشر

قال الجاحظ عن أبى مالك: من كان خيره محضاً عدم الهيبة، ومن لم
يعمل بإقامة جزاء الحسنة والسيئة، ولم يقتل فى موضع القتل ولم يعف
فى موضع العفو، ولم يعاقب فى موضع العقوبة، خالف الرب فى
تدبيره، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه، وقد قالوا: بعض القتل إحياء

للجميع، وبعض العفو إغراء، كما أن بعض المنع إعطاء، وينبغي أن يحفظ الوعد بالتوعيد والبشر بالعوس، والإعطاء بالمنع، والحلم بالإيقاع؛ فإن الناس لا يصلحون إلا على الثواب والعقاب والإطعام والإخافة.

- من أخاف ولم يوقع وعرف بذلك كان كمن أطمع ولم يعط، ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده لكان الله تعالى أولى بذلك الحكم.

- وفي إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة في جميع الأقطار وفي جميع الأعصار على استعمال المحبوب والمكروه دليل على أن الصواب فيه دون غيره.

- وإذا كان الناس إنما يصلحون على الشدة واللين، وعلى العفو والانتقام، وعلى البذل والمنع، وعلى الخير والشر عاد ذلك الشر خيراً، وذلك المنع إعطاء، وذلك المكروه محبوباً.

فصل

في الإذن والعجاب

عادات الملوك وآراؤهم مختلفة فيها؛ فمنهم من يسهل الإذن ويديمه، ومنهم من يكثر الاحتجاب ويقل الإذن، ومنهم من يرى الطرفين مذمومين ويرى الوساطة أحسن؛ فهو أمثلهم طريقة وأسدهم رأياً وأحسنهم سياسة، وفي كثرة الإذن مصالح ولها معاييب.

- فمن مصالحها سكون الرعية وتناصفها وحسن جرى الأعمال واستقامة العمال على الطريقة وكفّ الأقوياء على ظلم الضعفاء وهدوء الأطراف وزوال الأراجيف وإبتهاج الأولياء وانزعاج الأعداء وقرب متناول الحاجات.

- ومن معانيها أن الملوك بشر لا يخلون من العلل والأمراض وحققها أن تستر عن الناس ولا يطلع عليها غير الخواص نظراء الملوك، وإبقاء عليهم، فإذا احتجوا وأخلوا بعادة الإذن ظهر ما ينبغي أن يستر وساء أثره على المملكة وتطاولت الأخبار إلى الغد وبخلاف الواجب، وجال شيطان الأراجيف في الرعية، وربما احتاج الملك أن ينهض بنفسه إلى بعض الجهات في مهم من مهمات الملك يوجب الرأي إخفاءه عن الناس، فإذا كانت عادته جارية بطول الاحتجاب انكتم السر في حركته، ولم ينكشف ما يجب الجذ في ستره.

ومنها أن كثرة ظهور الملك عليه مجلبة لابتذال العيون إياه، ومن حقه التصون عن ذلك وبناء أموره وأحواله كلها على ما يزيد في هيئته، ويعود بعلو شأنه، وجلالة سلطانه، وفي رصية بعض الملوك لابنه: لا تمكن الناس من كثرة رؤيتهم لك، فإن أجراً الناس على الأسد أكثرهم له رؤية.

وسمعت أبا جعفر محمد بن موسى الموسوي يقول:

خرج السديد منصور بن نوح يوماً من داره للضرب بانصوالجة في السهلة، وكان في رسوم الملوك السامانية ضرب الدباب، إذا ضربوا

بالصوالجة، فسمع أبو جعفر العتبي وهو في ديوان الوزارة قرع الدبادب في غير وقته، فسأل عن ذلك فقيل له إن الملك في غلمانه وخواصه مشغول بضرب الصوالجة في السهلة، والنظارة محدقة به من الجهات، فدعا بدابته ركبها إلى الموطن الذي فيه السيد، فأخبره الخاجب بحضوره، فأنكره وأكبره وظنه لفتق حدث في الملك إذا لم يكن عادة العتبي جارية بحضوره إياه في مثل ذلك الوقت، وفي مثل ذلك المكان، فلما وصل إليه فترجل له قال السيد: سلامة أيها الشيخ، فقال: تكون السلامة والملك مبتذل لعيون العامة، وإنما هيبة الملك في قلة رؤية الناس له وتعذر وصولهم إليه، ولا حكمة أعظم من احتجاب الله عن عيون خلقه، ولو كان عز اسمه ظاهراً للعيون لما عبّد، فتبسم السيد ضاحكاً من قوله، وقال: قد علمت أيها الشيخ أنه لا بد لنا من تعاطي هذه الآلة لما فيها من الرياضة، فقال: لست أنهي الملك عنها ولكن أشير عليه بأن يمارسها في ميدان أو مكان ولا يصل إليه العامة؛ فأما هذه السهلة فهي واسطة البلد وهي مخوفة بالأسواق والسوق، وأنا أربأ بالملك عن عيون الأندال والغاغة إلا في الندرة. فقال: صدقت أيها الشيخ ورمي بالصوالجان من يده وثني عنانه إلى قصره، وما عاد بعدها للضرب بالصوالجة في السهلة.

ثم عاد بنا الحديث إلى الإذن والحجاب، فمن حق الملك أن لا يأذن إذناً كثيراً متوالياً؛ فكل كثير عدو للطبيعة، وقد أحسن ابن المعتز في قوله:

كما يخلق الثوب الجديد ابتذاله كذا تخلق المرء العيون اللوامح

وأن لا يديم الاحتجاب الذي لا تحصى مضاره، ولا تعد بوائقه.

وكان خالد القسرى يقول لحاجبه: إذا أخذت مجلسي فلا تحجب عني أحداً؛ فإن الوالى يحتجب لثلاث: إما عى يكره أن يطلع عليه. وإما ربة يخاف انتشارها، وإما بخل يكره أن يسأل شيئاً.

وكانت العجم تقول: ما شىء بأضيع للمملكة من شدة حجاب الملك، ولا شىء أهيب للجند والرعية، وأكف هم، عن الظلم من سهولته.

ولم أسمع فى تحسين الحجاب أحسن من قول أبى تمام:

يا أيها الملك الناسى برؤيته وجوده لمراعى جوده كسب

ليس الحجاب بمقصى عنك لى أملاً إن السماء تُرجى حين تحتجب

وقد أجاد ابن نباتة:

ولو كان الحجاب بغير نفع لما احتاج الفؤاد إلى حجاب

فصل

فى تعرف الأخبار وبش الجواسيس

من عمده الملك وأركان السياسة ورسوم الملوك الحزمة: صرف العناية إلى أخبار ما قرب وبعد من المملكة وما يجاورها من ممالك

الملوك، وبلوغ كل مبلغ من الجَد في تعرفها، والإحاطة بها ونصب
الأمناء، والثقات الكفاة لإدامة أسيانها على وجوهها، وتبليغ ما يدق
ويجل منها وترتيب البرد والمجمرين وأصناف الفروج لها وبث
الجواسيس في أرض الصديق والعدو. وأخذهم بركب الصعب
والذلّول وتجشم الحزون والسهول في الوقوف على حقائق الأخبار
وصور الأمور وأعمال الخيل لتحسينها والتلطف لإنهائها في
المشمعات وغيرها.

والأدب في هذا مأخوذ من الله تعالى في قوله: ﴿ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ
يَكْتُبُونَ ﴾ (الزخرف: ٨٠) وقوله تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ
رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (ق: ١٨).

ولم تزل حزمة الملوك معتنيتين بهذا الشأن بالغين فيه أقصى الإمكان،
وكذلك اتخذوا الحمام الهدى فجعلوها بريداً ووقفوا بها على الخبر
الحادث في ماضى يومه، وبينهم وبين البلدة التي حدث فيها مفاة
خمسة أيام وأكثر، وعلى هذا التقدير يجرى خبر الأبعد فالأبعد، والرسم
في اتخاذ الحمام الهدى باق إلى اليوم في بلاد العراق وما يجاورها وربما
بلغت قيمة الواحد منها مائتي دينار، فالملك الحازم من بينى أموره على
أن يكون ما يغيب عنه كما يشاهده معرفة وعياناً ووقوفاً عليه حتى
يستوفى لديه أحوال القريب والبعيد، ولا يستعجم عليه أبناء العدو
والصديق.

ويكون كأنها عناء أبو تمام بقوله:

أطلّ على كلا الأفاق طراً كأن الأرض في عينيه دارُ

وأراد به الآخر بوصفه:

أحاط علماً بكل خافية كأنها الأرض في يديه كره

ولولا ارتفاع مقدار البريد ما سما جناح المسلمين ونطقت به
الأخبار والأشعار.

وقيل لبعض بني أمية: ما الذي أذهب ملككم؟ فقال: نحاسد
الأكفاء وانقطاع الأخبار.

وكان لعمر بن الليث في التلطف للتعرف والتخصص بالتجسس
طريقة عجيبة، فإنه كان له على كل قائد من قواده، وعامل من عماله
ومذكور في رعيته رقيب في السر وعين في السر ينهي إليه دقائق
أخباره وخفايا أسرارهم، فكان عمرو يخبرهم بكل ما يفعلون ويقولون
ويأكلون ويشربون وسائر ما يعملون فيجازي المحسن بإحسانه
ويكافئ المسيء بإساءته.

والتعجب من ذلك يذهب بهم كل مذهب فيزدادون تحفظاً وتيقظاً
بين السر والعلانية في احتسامه وقضاء حقوقه مناصحته.

وكان الأمير أبو الحسن بن سيمجور يأخذ برسده ويزيد عليه في

تعرف الأخبار عامة وأخبار نيسابور خاصة، وكان له في كل سوق من أسواقها ومحلة من محالها ومجلس من مجالسها وفي كل دار من دور مشايخها وأعيانها وقواده وأصحابه المقيمين بها - عيون في السر حتى من العجائز يؤدون إليه كل ما يرون ويسمعون، ويجعلونه من كل ما يجري ويقع ويحدث على بصيرة شافية، فأما جواسيسه في سائر البلاد فمتجاوزون حدّ الكثرة، وكان يقيم لهم ما يصلحهم ويعطي لهم الرغائب، ويقضي لهم الحاجات.

فصل

في أبنية الملوك

من رسوم الملوك على وجه الزمان: بناء البلدان، وتفخيم البنيان، وتشيد الحصون المنيعه، والقصور الرفيعة، وإيثار حسن الآثار، كما قال بعضهم:

إن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

وما أحسن قول علي بن الجهم في بعض أبنية المتوكل من قصيدة:

وما زلت أسمع أن الملو ك تبنى على قدر أخطارها

وأعلم أن عقول الرج ال تقضى عليها بأثارها

فلما رأيت بناء الإمام رأيت الخلافة في دارها

صُحُونُ تُسَافِرُ فِيهَا الْعُيُونُ وَتُجِسِرُ مِنْ بَعْدِ أَقْطَارِهَا
وَقَبَّةٌ مُلْكُكَ كَأَنَّ النُّجُومَ مَ تَصْفَى إِلَيْهَا بِأَسْرَارِهَا

وما أظرف قول الشعراء للصاحب:

وَلِي مَسْأَلَةٌ بَعْدُ فَعَا جَلَنِي بِأَخْصَابِ
بَنِي الدَّارِ فِي دُنْيَا لَدَا أَمِ دُنْيَاكَ فِي الدَّارِ

وإنما أخذه من قول أبي العيناء حيث قال له المتوكل: كيف ترى دارنا هذه؟ فقال: يا أمير المؤمنين رأيتُ الناسَ يبنونَ دوراً في الدنيا، وبنيتَ أنتَ الدنيا في دارك. فينبغي للملك أن يضرب مع الملوك بسهم في الأبنية، ولا يركب الهوى المفرط، ولا يستحسن السرف المجحف في الإنفاق عليها، فيحمل بذلك على ماله الذي هو قوام أمره، ونظام ملكه، وعدة جنده، وذخيرة يومه وغده، ومعلوم أن البنين لذة كلدة النساء والخمر، وبعضه يدعو بعضاً، فلا نهاية لما تستغرقه نفقات الأبنية المنوكية من الأموال الجمة، بل يجب عليه ألا يصرف منها إلا فضول أمواله وأذئاب ارتفاقاته، وأن يوسع ما يقدره، ويحكم ما يؤسسه، ويرفع ما يشيده، ويعمل على التخليد، والتأبيد لا على التشقيق والتزويق.

ولا يضيع الأموال كما يضيعها المتوكل في أبنيته بسر من رأى، فإنه أنفق عليها ما لم ينفقه أحد من الملوك قبله، ولا بعده، والتدججتها، ولقب كلاً منها بالشاه، والعروس، والصبيح، والمليح، والغريب،

والبديع، والمختار، والجعفرى، واللؤلؤة، وغيرها مما لست أحاضر به، حتى انتهت النفقات إلى الثلاثمائة ألف ألف درهم، تفصيلها مثبت في كتب الأخبار العباسية، فأجحفت كل الإجحاف ببيوت أموال المسلمين، وماءت آثارها على الخلافة، والمملكة، ثم لم تكتب من بعده إلا مديدة، حتى خرب أكثرها، واضمححل معظمها، ولم يبق منها إلا أطلال ماثلة ورسوم دارة.

وما كان المنصور أنفق عشر عشيرها على بغداد حتى بناها أجل بلدة في الدنيا وأحسنها وأكبرها وأبقاها؛ لأنه بناها بالرأى والشماسك، وبنى المتوكل أبنيته باهوى والتهالك وشتان ما بين الحالين.

وبنى بالأمس بهاء الدولة أبو النصر ببغداد من البنيان ما لم تنف أمواله على كثرتها، بتشيد ما أسس منها، وإتمام ما أبدع وأغرب فيه وتركه غير مفروغ منه، وقد استهلك الأموال في النفقات عليه وانتقل إلى الأهواز ومنها إلى فارس، وأخل بدار المنك، وقبة الإسلام التي فتحها أبوه عضد الدولة بثلاثين ألف سيف لعجزه عن إتمام ما بناه بها.

ومن عادات الملوك الحسنة ورسومهم المذكورة عمل الصالح وتحسين الآثار وعقد القناطر وإصلاح الطرق وبناء الرباطات ورفع المساجد وعمارة الضياع وتحسين القلاع؛
ليس الفتى بالذى لا يستضاء به ولا تكون له فى الأرض آثار

فصل

في استماع الملوك للشعر

من أخلاق الملوك الاستماع للأشعار البارعة التي يمدحون بها وتذكر محاسنهم ومكارمهم فيها؛ لأنها تشتمل، إما على وصف ما أعطوه من علو المكان، واتساع السلطان، والثروة من المال، والكثرة من الرجال والأبطال، فإذا وردت على أسماعهم صوّرت في أنفسهم صور ما أعطوه من النعم، فوصل إليهم من السرور نحو ما كان يصل إليهم لو رأوها مستجمعة لهم في شخص واحد، وشكروا الله تعالى على ما خصّوا به من الحظوظ الوفيرة والمنح المتظاهرة.

وإما على ذكر فضائلهم ومناقبهم ونشر خصائصهم ومآثرهم، فإذا وجدوها في أنفسهم وعرفوها في طباعهم، اهتزوا لها وفرحوا بها وبعثتهم الأريحية على الازدياد منها، ثم من منافع الشعر الجيد أنه يدون ويخلّد فيسير في الآفاق وينقب في البلاد ويزيد الناس معرفة بفضل المدوح به ويبقى على الأيام حتى تتداوله ألسن الرواة وتنشده صبيان المكاتب كما يردّد الفضلاء في المجالس والمحافل، فيفيد المقصود به والمذكور فيه عمراً ثانياً ويكسبه شرفاً خالداً.

فصل

في أنموذج من محاسن ولطائف من رسوم

الملوك قيبت فيها الأشعار

كان عبد العزيز بن مروان إذا أمطرت السماء بمصر وهو واليها نثر
على ندمائه الدراهم والدينارين إلى أن تكفّ السماء، ففي ذلك يقول
عبد الله بن الزبير الأسدي:

لقد هطلت كَفْءُ عبد العزيز لجيئنا ونسراً على مُجتيديه
أجود ابن لَيْلى يُسأل أنسى ويَحظى المرجى بما يُرغبه؟

وكان خالد بن برمك أول من سبى السؤال الزوار، وذلك أن
عبد الله بن شريك النميري صار إليه في جماعة من الناس، ومن
الأشراف والأجواد ليستمحوه فقال خالد: أنا والله أستقبح لهم أن
يدعوا السؤال، ولكنني أسميهم الزوار. فقال له عبد الله بن الشريك:
والله ما ندرى أيّ بريك أجّد عندنا أصلتنا أم تسميتنا؟

وقال في ذلك يزيد بن خالد الكوفي المعروف بابن حسانة:

حذا خالد في جوده خذو برمك فمجدّ له مُستطرف وأصيل
وكان بنو الإعدام يُعزّون قبله إلى اسم إلى الإعدام فيه كليل
يُسَمّون بالسؤال في كل موطن وإن كان فيه نابه وجليل

فسمّاهم الزوّار سَتَرًا عَلَيْهِمْ وذلك من فعل الكرام تَبِيلُ

وذكر الصوفى أنّ هذا الخبر لغير خالد، فروى بإسناد له، أن المشاور
بن النعمان لما وُجِّى كور فارس، أتاه الناس مستمحين إياه، فقليل له: قد
اجتمع سؤالك. فقال: ما أقبح هذا من اسم! هؤلاء الزوّار، فسَمُّوا
الزوّار من ذلك اليوم.

فيه يقول زياد الأعجم:

إنّ المشاور أعطى فيه عطيتَه سؤاله أحسن الأسماء للبَشَرِ
كانوا يستقون سؤالاً فصيرهم دون البرية زواراً ولم يُجِرِ

وكان المهتدي بالله يجلس للمظالم ويقرأ القصص، فبلغه أنه يؤخذ
على تقديم بعضها على بعض دراهم، فاتخذ بيتاً كبيراً وجعل له شباكاً
حديداً إلى الطريق وأمر فنودى في الناس من أراد أن يقرأ أمير المؤمنين
قصته فليطرحها إلى البيت الذى جعله للقصص من الشباك الحديد،
فكان الناس يطرحون قصصهم فيه فلا يدخل البيت غيره، فيخرج ما
يقع في يده أولاً فأولاً فينظر فيه وينصف المظلوم ويقمع الظالم ويحسن
النظر ويقضى الحوائج، وكان يسمّى ذلك البيت بيت المظالم.

فقال فيه المعروف بياذنجانة الكاتب:

بنيت لنا بيت المظالم رأفةً بنا فمحا الإنصافُ من ذلك الظلما

وما كان للأُملاك من قبل مثله ولا آثروا حَزْماً ولا اجتنبوا غَشْماً
وقد كان يَلْقَى صاحب الحق خِبةً لديهم ، وياً بعد ما كَلَّف الغرماً
فَسَهَّلَتْ ما قد كان يَصْعَبُ عندهم فأوسعتُ حَمداً مثلما أوسعوا دَمّاً

obeikandi.com

في آفات الملوك

فصل

في تخليط الملوك

من أعظم آفات الملوك كثرة ما يصنع من مطابخهم ويهدى إلى موائدهم من بدائع الطيبات وظرائف المأكولات واشتغال مجالس أنسهم المتصلة على ما يدعو إلى الاستكثار من الشراب وامتناء قصورهم من كل ما يبعث على اتباع الشهوات، والإفراط في ممارسة اللذات؛ فهم يستكثرون من هذه الثلاث التي حقهم الإقلال منها والاقتصاد فيها، وكل كثير عدو للطبيعة، ويتسبطون في كلها أو بعضها فيتعرضون بإدامة التخليط لفساد المزاج وقصر الأعمار.

وما أكثر من كان منهم صريع يده وقتيل بطنه وفرجه، كسليمان بن عبد الملك بن مروان، فإنه كان أكل من النار وأشرب من الرمل وأسند من العصفور، فأكل يوماً ثلاثين دجاجة مشوية ومائة بيضة مسلوقة وشرب أرطالاً من النبيذ وتمتع بأربع من العذارى، فأخذته الكظة، وضعفت منه المنة، فطرقته المنية.

وكالواثق بالله فإنه أكثر الأكل جدًّا، وكان يأكل على غير نقاء، حتى فسد مزاجه، واستسقى فجئء له بطبيب من جند نيسابور فأمر فأحى له تنورًا، وجلس فيه حتى سأل منه عرق كثير فصلح، فقال له الطبيب إن عاودت ما كنت عليه عادت العلة إلى حالها، ثم لا يتفعل معها مثلما عاججتك به، فلم يقبل قوله وعاد لعادته في التخليط، فعاودته العلة حتى أتت على نفسه.

وذكر الأصولي عن محمد بن يحيى بن أبي عباد قال: سمعت أبي يقول ويحلف: أن المتوكل لو لم يُقتل لما عاش، وذلك أنه قد كان خفَّ دماغه وبس بدنه من كثرة الباه، فكان يصب في أذنه أوقية من دهن البنفسج فلا يتبين فيها، ويناله سهر كثير، وكان يقول: قد أتعب الجميع أعضائي، وأحتاج إلى أن أبلغ المراد ولا أتعب، فوصف له الزبيق، فجعل في الزقاق ومثلت منه بركة وفرش له فوقها، وكان يبلغ ما يريد ولا يتحرك؛ إذ كانت حركة الزبيق تكفيه.

وكانت علة المكتنى - على شبابه - فساد مزاج وفرط جفاف من كثرة الغشيان، وكان دواؤه أن يقلَّ الغداء، ويرطب بدنه قليلاً قليلاً، ولا يتعب فكان يفعل ضد هذا، ويرى الأطباء أنه يحتسى، فإذا خرجوا دعا بالخبز والزيتون والصحاني، وكل ما لا يوافق، فاستكثر فيه، وأكبَّ على التمتع، فلم يزل كذلك حتى سقطت قوته واشتدَّت علة وأتت عليه ميتة.

فهؤلاء من الخلفاء، ومن يحصى عدد الملوك الذين اعترتهم هذه
الآفة الشهوانية، كفخر الدولة، فإنه كان غير ضابط لعنان شهوته،
ففرغ يوماً القلعة التي استخدمها بالرى على جبل طبرك، فاشتبه
طرائح من لحم البقر فذبحت بين يديه واحدة منها في نهاية السمن،
وظفق غلمانها يكبون منها، وهو يجيب داعي الشره والنهم في تناولها
ودارت عليه الكتوس ملأى، فلم يثبت أن روى عليه جوفه واتصل
على الألم صوته، إلى أن هجم عليه موته.

فصل

في آفات الملوك من العبيد

ما أصدق قول علي بن الجهم من قصيدة في مقتل المتوكل بأیدی
غلمانہ لغیة الطاهرية عن حضرته:

ولو شهدته غصبة طاهرية مكرمة أباقها وجدودها
لعرز على أيدي المنون احترامه وإن كان محتوماً عليه ورودها
ولكن نأت واستحلمته عبيده وأعظم آفات الملوك عبيدها

وذلك أنه لا غنى للملوك عن العبيد والخدم بحال من الأحوال،
وما كل ملك يوفق لإحسان سياستهم والإصابة في تربيتهم وإرضاء
جميعهم.

ومن رسوم الملك رفع بعض العبيد على البعض بحسب

استحقاقاتهم، واختصاص الأصلح؛ فالأصلح لخدمتهم، والأحسن
فالأحسن أثراً إلى التقرب إليهم، ومن هنا يتولد لهم التحاسد
والتعادي والتنافر؛ حتى يؤدي إلى التحارب والتظاهر والتعاون على
العظائم، فكم من كريم عدت عليه منيته من يدي لئيم، وكم من ملك
هذهك على يد مملوك.

ولله در المتنبي في قوله:

فلا تَنَلِكَ اللِّيَالِي إِنْ أَيْدِيهَا إِذَا ضَرَبْنَ كَسْرُنَا النَّجْعَ بِالْعَرَبِ
وَلَا يُعَمِّنَ عَمَدُوا أَنْتَ قَاهِرُهُ فَمَا تَهْنُ يَصْدُنَ الصَّقَرُ بِالْخَرَبِ

ومن الملوك من يفرط في سياسة غلمانه حتى يستحيلوا أعداء له
يتعادون عليه، ومنهم من يرفق كل الرفق بهم، ويحتمل سوء أدايهم،
ويغضى على هزاتهم كأنوشروان، فإن المؤبد كان يوماً عنده فسمع
ضحك الغلمان من خارج الأبواب فقال: أما تمنع هؤلاء هيبة الملك مما
هم فيه؟

فقال: إنما يهابنا أعداؤنا.

وكان بعض الملوك يقول في غلمانه: هم أماناؤنا على أرواحنا، فإذا
أخفناهم فكيف نأمنهم؟

وكان المأمون يقول: من كرم الملوك سوء أذب غلمانهم.

ومن آفات الملوك ركوبهم الهوى في تولية الغلمان المرد ما عسى

الكهول يعجزون به، والنفاذ فيه، فيجتمع عليهم بذلك: خبث ضرائر
الآحرار وسوء آثار الأحداث الذين لمن يتقدم لهم حنكة في الخطوب
وممارسة الحروب.

وما يستظرف لابن المعتز قوله في غلام أمرد جعل أميراً على
الجيش:

جعلت لتأمر البلاد مقرطفاً	تنوء بكشع في القباء هضيم
وتذكر عراب البلاد إذا بدا	بخد كعاب أو بمقلة ريم
وإن رام أمراً لم ينله بكى له	بكاء وليد في الحجور فطيم
يداه تحث الكأس إذا ما مشى	إلى القرن من رمح بهز قويم

وكان لمعز الدولة أبي الحسن بن بويه غلام يدعى "تكوين الجامدار"
أمرد وضىء الوجه، منهك في الشرب لا يفارق اللهو ولا يعرف
الصحو، فلفرط ميله إليه جعله رئيس سرية جرها لمحاربة أبي المرجا
وهبة الله بن ناصر الدولة أبي محمد بن حمدان، فأشار عليه أبو محمد
المهلبى الوزير، بأن لا يخرججه في مثل ذلك الوجه وأن يعدل عنه إلى
أحد مشايخ القواد المحنكين المجريين، الحزماء، الحصفاء، فلم يقبل
منه وأنفذه في ألف رجل جريدة، فأطلقوا على أبي المرجا وهبة الله
وأرهقوهما، فأفرجا عن جميع ما كان لهما من الكراع والأثقال
والآلات، ففرق العسكر في نهب ذلك وعجنوا بالنزول في خيم القوم

فما استقروا حتى عطف أولئك عليهم، فصارت الكبسة هم وقتلوا منهم وأسروا واقتصوا وزادوا، ونجا تكيين الجحامدار على فرسه فوقع عليه بعض صعاثيك العرب ليسلبه ويأخذه، فعرفه نفسه، وضمن له ما أرغبه حتى جاء به أى معز الدولة فما سلم من القوم غيره وغير مرهوب وجند من أصاغر الجند، فبان لمعز الدولة موقع ما أشار به المهلبى، ولكنه لم يعترف به ولا أظهره.

قال أبو إسحاق الصابى: أنشدنى المهلبى لنفسه فى هذا الغلام - وكان يستظرفه ويستحسن صورته - ويرى أنه من عدد الهوى لا من عدد الوغى:

طفل يرقى الماء فى	وجناته ويرف عوده
ويكاد من شبه العذارى	فيه أن تبدو نهوده
ناظروا بمقد خصره	سيفاً ومنطقه تؤوده
جعلوه قائداً عسكري	ضاع الرعيل ومن يقوده

فصل

فى عظم الشدائد التى تعرض للملوك

من آفات الملوك أن محنتهم فى العظم والشدّة على حسب أقدارهم فى العلو والرفعة، وإن الشدائد التى تعرض لهم أدهى وأمر مما تعرض لغيرهم، صرف الله تعالى عن مولانا الملك السّيد نواب الزمان

وطوارق الحدثان، ووفر حظه من سعود الملك والملوك ونعمهم
وأعاده من نحوسهم ونقمهم وجعل على نفسه ومملكه واقية باقية
بطولته وحولته.

ومعلوم أنه لم يملك الدنيا كملوك بني العباس؛ فإن الله أعطاهم
مفاتيح الأرض وملكهم نواصي الخلق حتى حازوا ملك الأكاسرة
والقيصرة والفراعنة والتبابعة والطرانجية وغيرهم من الملوك
والجبابرة، وكانت المحن التي أصابتهم والبواهي التي حلت بهم بإزاء
ما أتوه من جلائل النعم وרגائب القسم.

ولو ذكرت جميعها خرجت من رسم الكتاب إلى حد الإسهاب،
ولكني أورد نكتاً فيها عبرة للمعتبر وعظة للمتبصر:

فمنها: أن محمد الأمين لما حاصره طاهر بن الحسين فاشتد عليه
الحصار وضاق الأمر به شغب عليه جنده في طلب الأرزاق فأصبح
يوماً وحجارة المنجنيق يسقط على فرشه، وهو يسمع ضوضاء
المحاصرين من جهة وأصوات جنده الشاغين من أخرى، فقال وقد
خففته العبرة: لعن [الله] الفريقين! أما أولئك فيطلبون دمي، وأما
هؤلاء فيريدون مالي.

ثم لم تطل به المدة حتى ظفر به وقتل.

ومنها محنة المتوكل: فإنه كان ليلة في مجلس أنسه قد أحرق به
الندماء والمطربون ودارت الكئوس، وطابت النفوس فهجم عليه

جماعة من الأتراك بمواطاة المنتصر، وتولى ضربه وقتله منهم باغر
التركي، وانقلب مجلس النهو والضرب بمجلس الويل والحرب وأكثر
الشعراء في وصف المقتل، وأحسن منهم أحمد بن إبراهيم الأسدي في
قوله:

هكذا فلتكن منايا الكرام بين ناي ومزهر ومُدام
بين كأسين أروياه جميعاً كأس لذاته وكأس الحمام

ومنها: محنة المستعين بالله؛ وذلك أنه لما اضطر إلى خلع نفسه من
الخلافة ومبايعة المعتز بالله أحضر ابن أبي الشوارب القاضي ليقرأ
الشرط على المستعين بالخلع فقال له ابن أبي الشوارب: يا أمير المؤمنين
أشهد عليك بما في هذا الكتاب؟ قال: نعم، فقال: خار الله لك يا أبا
العباس، فبكى المستعين بالله، وقال: اللهم إن كنت خلعتني من
خلافتك فلا تخلعني من رحمتك، ثم أنشأ يقول:

كلُّ مصلحٍ مصيره لذهاب غير ملك المهيمن الوهاب
كلُّ مأتري يزول ويفنى ويمحى العباد يوم الحساب

ثم قال له: اختر بلدة تنزلها، فقال: قد اخترت البصرة، فقيل له: إنها
حارة، فقال: أترونها أحرّ من فقد الخلافة؟

ومنها محنة المعتز بالله حين خلعه الترك، وضربوه وسحبوه وهو
حافٍ حاسر والزمان حارة القيظ والوقت وقت الهاجرة، وطلب نعالاً

يلبسها فلم يعطها، فأوحى سراويله ومشى عليها ثم إنهم ساموه سوء العذاب، فأدخلوه حماماً وهو عطشان مكدود فجاءه بعض مواليه بهاء فيه ثلج، فحين شربه مات.

ومنها: محنة المهتدي بالله، وكان سفيان الثوري [يقول]: الخلفاء خمسة، الأربعة الراشدون وعمر بن عبد العزيز قالوا والسادس المهتدي لا شك فيه، فإنه كان بسيرة العميرين وينصف ويعدل ويجتهد، فكان قد عظم في أعين الناس عامة، والأثرak خاصة، حتى إذا ركب فرآه الناس ارتفع ضجيجهم بالبكاء والدعاء، ومن مآثره أنه أمر ببيع آلات الملاهي ونفى المغنين والمختئين عن "سر من رأى" وردّ هدايا النيروز والمهرجان، وجلس للمظالم فما وجد فيها تغيراً حتى احتال من يتعصب لولد الثوكل بأن قال للأثرak هذا كافر، وهو يرى السيف عليكم، فقالوا والله ما نرى سيئاً الكفر عليه فقال هم: أليس الرهبان في الصوامع يتعبدون، وقد تركوا الدنيا وهم في النار كفار فهذا مثل أولئك.

ولما أتى المهتدي من عدله وورعه، ولم يرض الأثرak سيرته المرضية حاربوه فقاتلهم، وخذله من يثق بهم، فقال وهو يستغيث بالعامة: ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم؟ فما أغاثه أحد، حتى أخذ وقتل.

ومنها: محنة المعتمد على الله، فإنه مع تطاول أيامه واستمرار السلامة به، كان ممتحناً باستيلاء الأثرak عليه واستخفافهم به،

واستبداد الموفق دونه بالأمر حتى قال: أصبحت لا أملك دفعاً لنا
أسام من خسف، ومن ذلة يمضي أمور الناس دوني ولا يشعرنى في
ذكرها قلة، إذا انتهيت الشيء ألوا به عنى وقانوا ههنا علة، وطلب
في ليلة من الليالي ثلاثمائة دينار فلم يجدها، فقال:

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قلُّ مُمتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء فسى يديه
إليه تحمل الأموال طراً ويمح بعض ما يُجبى إليه

فصل

في جعل وجوامع من آفات الملوك

فمنها أن الملك إذا طالت أيامه ولو في العدل وحسن السياسة
والسيرة، وقعت من رعيته الملامة لطول الولاية واعتري نفوسهم
الضجر والسآمة، وما أصدق من قال:

لا يرتضى المسرّ حاله أبداً لا صغراً يرتضى ولا كبراً
ألا أحواله الشباب ولو دام لأبدي الملام والضجرا

وهي الحال التي أشار إليها الشاعر بقوله:

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ نصيب ولا حظ، تمنى زوالها

وما ذاك عن بغض لها غير أنه يرجى سواها ؛ فهو يرجو انتقالها

ومنها تولع العامة بالملوك ورحبهم الطعن عليهم، والتجسس عن أخبارهم، ونشر المعاييب عنهم؛ ولم تزل هذه الخلال في طبائع الناس، لا يكاد ينجو منها إلا من رجع علمه وعظمت مروءته وظهر مؤدبه، واشتد ورعه.

وكان معاوية يقول: أتدرون من النبيل؟ أنا أخبركم عن النبيل هو الذى إذا حضر رأيتموه، وإذا غاب عبتموه، وهذه سبيل العظماء عند العوام، والملوك عند الرعية، والسادة عند العبيد.

ومنها أن الرجل المخوف على الملك قد يكون محبوباً عند القوائم، لما يوجبه حكم السياسة من الاحتفاظ به والاستيثاق منه، فيموت حنفاً أنفه، فلا يشك الناس أن الملك هو الذى أمر بقتله، ويموت على فراشه فلا يشكون أنه هو الذى دس إليه السموم ومشى على دمه ويموت وهو ناء عنه، فلا يشكون أنه قد احتال له ويقدم فى ذلك على يد طبيب أو خدام أو طبّاخ أو صاحب شراب على بعد داره، ونأى قراره، ولو تمنع مكانه واشتد احترازه واحتراسه ولو قتلته هفيف الريح أو صعقته صاعقة لوجد من يقول فيه قولاً.

ومنها كثرة أعداء الملوك وحسادهم وأضدادهم ممن فوقهم من الملوك، وممن دونهم ومن أشكاهم ونظرائهم وأقربائهم لأسباب

مختلفة وأحوال متباينة، وما يحتاج إليه الملك في آناء ليله ونهاره وعند إقامته وطعنه وسكونه وحركته من التيقظ والتحفظ من معارفهم ومضاربهم وذبيب عقاربهم ومكايدهم، وما يستغنى من شدة الاحتياط على كل ما يأكله ويشربه محترزاً من غوائل السم الذي هو أعظم آفات الملوك ولا يحصى عدد المهلكين به منهم لا سيما في الشمامات فإنها إن كانت مسمومة طارت في الدماغ، فأفسدته في الوقت والساعة وولدت رعافاً قاتلاً، حرس الله مولانا الملك بعينه التي لا تنام وأطال بقاءه في ضمان كفايته وحسن رعايته.

ومنها أن الخدعة المهرة الكفرة من دعاة أهل الأهواء والبدع وذوى الإلحاد في النحل كالباطنية والقرامطة والإسماعيلية، والذين يقولون بالطبائع والنجوم ولا يثبتون النبوءات ويسمون الأنبياء أصحاب النواميس والخوائج، كثيراً ما يتوصلون إلى مداخله أعمال الملوك ممن لم يسمعوا كلام المتكلمين ولم ينظروا في علم الكلام، فيخلون بهم ويخدعونهم برقاهم المزخرفة وشبههم المزوقة وأقاويلهم المزيفة، ويخرجونهم بزعمهم من رق الشريعة إلى حرية الإلحاد، ويكفونهم من إसार الديانة ويرخصون لهم في ترك الصلوات وسائر العبادات، واتباع الشهوات فيسلسل قيادهم لهم، ويحصل أعنتهم في أيديهم؛ إذ يغتتمون الراحة والدعة والأمن والسعة، فيتبسطون في ارتكاب المحارم واقتراف المآثم وإراقة الدماء والأخذ للأموال، ونقض العهود والسجلات والاستخفاف بالإسلام.

وقد كان السعيد نصر بن أحمد وقع في هذه الشبكة من جهة أبي
الطيب المصعبي وأبي الحسن بن سودة الرازي؛ فإنهما كانا من أنياب
الملحدين، ومن أشد الناس اختصاصاً بالسعيد، ومن خبره أنه قد كان
تاب من الشراب وندم على سفك الدماء؛ وخاف مقام ربه، وقرع باب
النسك فكان يخو بالدعاء والبكاء ويخاف الموت أشد الخوف فما زال
المصعبي وابن سودة يخذلانه بمعسول كلامهما ويدرجانه إلى مذهبهما
ويقولان له إن الحسم والغم لا يدفعان مكروهاً ومحدوراً، والأصوب
مباشرة اللذات ومعقرة الكاسات وسبع القين الحسان؛ لتستريح
النفس الناطقة من كذا في هذا العالم الجسداني الذي كذا هموم وآلام
لا يدفعها إلا اللهو والطرب والعزف والنقصب ويصوران لديه أن
مرارة الموت في خوفه وأنه اللذة الكلية والراحة العظمى؛ لأنه باب
العالم الروحاني الذي لا آلام فيه ولا أحزان ولا أهوال، وما يشبه هذه
الخرافات حتى مال إلى قولها وانخرط في سلكهما، ودخل أبو علي
الجبائي مدخلهما وزاد عليهما بأن كان يسمى أصحاب الفقه: أصحاب
القدرات، يعني أنهم يتكلمون في الاستنجاة والحيض وما أشبههما، ثم
إنهم زينوا لذلك المذهب: مذهب الإسماعيلية وهو مذهب أحمد بن
محمد البزدهي، وحملوه على استدعائه والإصغاء إلى كلامه، فأمر
بإحضاره فأحضر وأجل وبجن ووقع القول لما أظهره من الرعونة
والدعوة الملعونة، فأمر السعيد بضرب سبعين ديناراً في كل دينار منها
مائة مثقال لتنفذ إلى صاحب الجزيرة، وهو عندهم إمام تلك الدعوة،

فصرت وصنع الله للإسلام في هلاك المصعبي، وضعف أمر القوم
 وذهب الزيد جفاء، ورجع البزدهي إلى قريته متمسكاً بضلاله، وعنده
 بعض تلك الدنانير وعند ابن سواده بعضها، فلما توفي السعيد وقام
 مقامه ولده الحميد عاد ابن سواده في تزوين ذلك المذهب عنده وكتب
 إلى البزدهي في إنفاذ حذاق دعاة وأجدتهم وأنطقهم إلى حضرة الحميد
 ليدعوه ففعل، وكان الحميد مستبصراً متفقهاً في الدين آخذاً عن محمد
 المعروف بالحاكم الجليل، وهو إمام في مذهب أبي حنيفة فلما جاء
 رسول البزدهي وصل إلى حضرته في السر وعرض عليه الدعوة فقال
 له الحميد: إن كانت الدعوة إلى غير الإسلام، فأعوذ بالله منها وإن
 كانت إلى الإسلام فقد سبقكم إليها محمد، سيد دعاة الحق وهو النبي
 محمد (صلى الله عليه وسلم) ولا مزيد على كمال دينه، وحسن ما نقل
 إلينا من آثاره وأحكامه، وهب أنى قبلت هذا المذهب فيما معنى ستره
 عن الناس، وهذا زهير - على كفره - يقول:

والسُّرُّ دُونَ الْفَاحِشَاتِ وَلَا يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مَنْ سَتَرِ

فقال الرسول: هكذا الإمام، فقال: هذا لا يخلو من أن يكون خوفاً
 من العامة أو من الخاصة أو من السلطان، فإن كان لخوف العامة فهم
 رعيته وما فيهم من يجسر على مخالفتي، وإن كان لخوف الخاصة فأى
 سلطان فوقى وأى يد فوق يدي، فلم يبق وجه لستر هذا الدين ولا
 للممين والعهد فيه نهت الذين كفروا والتقم الحجر ولم يحرجوا أبداً وعاد

إلى البرزدهي وأخبره بما جرى، فأيقن بالشر، ولم يلبث الحميد أن طالب ابن سواده بالدنانير المذكورة، فأنكرها وحلف بالإيمان المغلظة أنها ليست عنده ولا له علم بها ولا هي في داره ولا عند أحد من أصحابه، ثم عثر على أكثر تلك الدنانير في بعض مخابئ داره، فأخرجت فنكبه الحميد ويطش به حتى هلك وأشخص البرزدهي وطولب ببيتية الدنانير، فلم يفرج عنها وخوَّطب في مذهبه، فالتمس المناظرة وقال إن كانت الحجة علىّ ثبت من مذهبي ورجعت عن رأيي فلم يناظره واستفتى الفقهاء في أمره، فأفتوا بقتله، فقتل وصلب.

ومن أدركه شؤم هذا المذهب الفاسد من ملوك الزمان بكر بن مالك، وأبو علي بن إلياس وأبو جعفر بن بانوا - والد خلف - وظاهر ابن محمد السجزي وأبو علي بن سيسجور، وقد كانت هذه النحلة الردية باضت وفرخت بخراسان، ولولا تسمير السلطان المعظم يمين الدولة وأمين الملة أبي القاسم محمود بن ناصر الدين عن ساق الجذ في نصرة الإيمان وإقامة شعائر الإسلام وحصد نواجم الإلحاد من أصولها، وقلع نوابت التعطيل بعروقها، لرفعت الفكرة الفجرة أنجادها، وأصبحت آثار الدين طامسة ومعالم الإسلام دارسة ورءوس المسلمين ناكسة، ولكنه جرى على قرة بصيرته وحسن سريره في حيطة الدين وشدته على الملحدين، وروى سيوفه من دماء أهل الخيان وعصبة الضلال، فلم يدع للباطل علماً إلا أضعفه فوضعه،

ولا ركناً له إلا ضعضعه؛ حتى عادت أمور الدين خير معاد، وانقمع كل حاسد للإسلام ومعاد. والله تعالى يشكل سعيه ويطيل عمره ويجزيه كل خير عن وثاقة دينه واستحكام يقينه ويديم له النجم صاعداً والزمان مساعداً، ولا يخليه من الأمر الرشيد والمقام الحميد، ونبدأ في كل ذلك بمولانا الملك ونجعل الحظ الأوفى والنصيب الأوفر من الدعوات الصالحة له بمتة.

في خدمة الملوك وآداب أصحابهم

فصل

في الخدمة

كان يقال من خُدم الملوك خُدم، وقال أبو تمام:

فإني لم أخدمك إلا لأخدما

وكان يقال: خادم الملوك بلا آلة، كراكب البحر بلا سفينة.

ومن فصول ابن المعتز من نصح الخدمة نصحته المجازاة.

وفي كتاب اليتيمة لابن المقفع: من خُدم الملوك فعليه بالملازمة من غير معاتبة.

وكان يقال: أربعة لا يُستحي من خدمتهم:

السلطان والوالد والضيف والفَرَس.

وفي كتاب كليله ودمنة: ليس كل من يخدم الملوك لبطنه؛ فإن البطن

تشيع بكل مكان، ولكن نُزلة تسر الصديق وتسوء العدو.

وقد كتبتُ ما سمعت أبا نصر ابن أبي زيد يقوله ولا بأس بإعادته
فهذا مكانه: من خدم ملكاً فهو خادم من جهة، وملك من أخرى،
ومن خدم سوقه فهو خادم من الجهات كلها.

وفي أمثال العجم:

من تبع الأسود لم يعدم لحوم الصيد.

ومن الشعر السارى على كل لسان:

بخدمته السلطان والكاسات من أيدي الملاح.

فصل

في صعوبة خدمة الملوك

قال الفضل بن مروان: أغلظ إلى المأمون في شيء جرى، ثم استبان
عذري فاستحيا وقال:

يا فضل إن فينا - معشر الملوك - محكاً وحسداً واستشاراً وولعاً
وحقداً وفرعاً.

وكان الفضل يقول: من بالغ جهده في مناصحة السلطان اتهمه،
ومن عرف منه مذهباً في دينه يخالف مذهبه غيره ورصده بالعقاب
عليه، وما رأيت أقرب رضى من سحق ولا أسرع ما بين قرب وبعد
من الملوك.

وكان يقال: إياكم والسلطان فإنه يغضب غضب الصبي، ويأخذ
أخذ الأسد.

وفي وصية لقمان: يا بني، احذر البحر إذا مدّ والمذك إذا غضب.

وفي كتاب كيلة:

خاطر من لجج في البحر، وأشدّ منه مخاطرة خادم السلطان.

وفي فصول ابن المعتز:

أشقى الناس بالسلطان أقربهم منه، كما أن أقرب الأشياء من النار
أسرع احتراقاً. وفيها: لا يدرك الغنى بالسلطان إلاّ نفس خائفة،
وجسم تعب، ودين متلّم.

ومن ألفاظ البديع الهمداني:

المملوك إن خدمتهم ملوك وإن لم تخدمهم أذلوك.

وأنشدني أبو الفتح البستي:

سل الله الغنى تسل جواداً أمست على خزائنه السقادات

وإن حبابك سلطان بقرب فلا تغفل ترقبك البعادات

وقد تدنى المملوك لدى رضاها وتبعد حين تحتقد احتقادات

كما المريع في التلث يعطى وفي التريم يسلب ما أفادات

فصل

في ذكر قوم من الأدباء نسبوا إلى سوء الأدب بين أيدي الملوك
في أشياء ليست من سوء الأدب عند العامة وأكثر الخاصة

دخل الشعبي على عبد الملك بن مروان أول دخلة فلما أخذ في الكلام كنى رجلاً فقال له عبد الملك أخطأت؛ الملوك لا يكنى أحد بحضرتهم. وجرى حديث فقال اكتبنيه يا أمير المؤمنين، فقال أخطأت الملوك لا يستكتبون، واستفهمه كلاماً فقال ولا يستفهمون؛ ثم استعاده فقال ولا يستعادون، فخرج من مجلسه يجزّ ذيل الخجل.

وكان كثير يحضر [سمر] يزيد بن عبد الملك فقال له ليلة: يا أمير المؤمنين ما يعنى الشياخ بقوله:

وقد عرفت مغابتها وجادات
بدرتها قسرى حزين قسرين

فقال: وما يضّر أمير المؤمنين أن لا يعرف ما قاله أعرابي بوال على عقبه هو القراء أشبه خلق الله بك! وكان كثير قصيراً قميصاً دميماً.

وقال الرشيد يوماً للأصمعي: أخبرني عن فلان - لإنسان من العرب - فقال له: على الخبر سقطت يا أمير المؤمنين. فقال له الفضل ابن الربيع: أسقط الله أنفك وعينيك، أهكذا يخاطب الخلفاء؟

ودخل الفيض بن أبي صالح على الرشيد فمدّ يده إليه ليقبلها فلم ينكب عليها ورفعها إلى فيه فقبلها، فقال الرشيد: لولا حقه لقتلته.

وأوصل أحمد بن أبي خالد بعض الأدباء إلى مجلس المأمون فطاو له الحديث، فلما خرج قال لأحمد فهل أنكرت مني شيئاً؟ قال: نعم، ضحكك أمير المؤمنين وضحكت أكثر من ضحكك، والضحك بين أيدي الملوك سوء أدب، لا سيما إذا كان أكثر من ضحكهم. وحكى الصولي قال:

قال لي المكتفي وقد أنشدته شعراً بعد إنشاد يحيى بن عني المنجم: أنت يا صولي أشعر من يحيى، فقلت رأي مولانا في عبء، وإلا فيحيي أشعر، فلما خرجت قال لي القاسم بن عبيد الله [وكان] حاضراً ما جرى:

أخطأت في ردك قوله حين قلت له يحيى أشعر مني، وقد قال أنت أشعر منه، والملوك لا يواجهون بالرد، وإنما يقع تعريض بالمراد والمعنى، ففقت: والله ما فطنت لهذا وقد تعلمت الآن.

فصل

في الدخول على الملوك والقيود عندهم

لما أراد مالك بن أنس الدخول على الرشيد أول دخلة، قال للفضل ابن الربيع: علمني كيف أدخل إلى أمير المؤمنين وكيف أسلم عليه وأين أقف من مجلسه؟

ومما أجمع عليه أهل الخبرة بخدمة الملوك أنه يجب على الداخل إلى

الملك أن يعتمد العدول عن الطريق الذى تقبله يمنة أو يسرة ثم
ينحرف إلى مجلس الملك ويقف ويقيم الرسم فى خدمة مثله، فإن
استدناه الملك دنا خطى ثلاثاً أو نحوها ووقف، فإن استدناه ثانياً دنا
نحواً من دنوه الأول، ولم ينظر إلى تعب الملك فى إشارة أو تحريك
جارحة، فإن ذلك وإن كانت على الملك فيه معاناة، فهو مما يجرى فى
طريق إجلاله وتعظيمه، فإذا أمسك الملك عن الإشارة أو الحركة
وقف فى المكان الذى يقطع الملك إشارته عند انتهائه إليه، ومثل قائماً
فإن أوماً إليه بالعود قعد مقعياً أو جاثياً فإن كلمه أجابه بانخفاض
صوت، وقلة حركة وحسن استيعاب، فإذا قطع الملك كلامه قام فرجع
القهقري، وإن أمكنه أن يستتر عن وجهه بجدار، أو مسلك لا يجاذيه
فعل ثم مشى كيف شاء، ومن حق الملك أن لا يطيل أحد القعود، فإن
أخطأ مخطئ فى ذلك، فإن أذن له الملك فى الانصراف أن يلحظه فإذا
عرف ذلك ولم يقم، كان مما يحتاج إلى أدب وكان الذى وصله بالملك له
ولنفسه.

وكان يقال: لئن يقال تقدم أمامك خير من أن يقال تأخر من
ورائك.

ويقال: اجلس حيث يؤخذ بيدك وتبر، لا حيث تؤخذ برجلك
وتجر.

قال أحمد بن الطيب السرخسى: اختلاف صور الجالسين على قدر

اختلاف صور أحوالهم: فللملوك جلسة، وللمتعلم جلسة، ولللنديم جلسة، وينبغي للنديم ولغيره أن يعطيه الملك حال الجلسة التي يستحق؛ فهي من حسن الأدب.

فصل

في شُور من الوصايا لأصحاب الملوك

الأصل فيها قول العباس بن عبد المطلب لابنه: يا بني إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد قرّبك واختارك على الكبراء من الصحابة وقدمك عليهم، فاحفظ عني في أمرهم ثلاث خصال: لا تفسين له سرّاً ولا تغتابن عنده أحداً ولا يطلعن منك على كذبة.

وقال زياد لابنه: إذا دخلت على معاوية فادع له ثم اصنع صفحاً جميلاً ولا يرين منك مهالكاً ولا انقباضاً عنه.

وقال جليس لعبد الله بن زياد له: أيها الأمير أعلمني ما يوافقك حتى أمثله ولا أجوز إلى غيره؛ فنحن أثقل عليك، من حيث لا أدري. قال: طلبت الأمر من وجهه لا تكثرن إتياني فأملكك ولا تقعدن عني كل القعود فأنسالك، ولا تكثرن طلب الخوانج للناس فيدخل عليك بحاجتك.

وقال عبد الملك بن صالح الهاشمي لجليس له: كن على التماس الحظ بالسكوت أحرص منك على التماسه بالكلام، ولا تساعدني على

ما يقبح بى، ولا تردّ على الخطأ فى مجلسى، ولا تكلفنى جواب
الشميت والتهنئة، ولا جواب السؤال، ودع عنك كيف أصبح الأمير
وأسمى.

فصل

فيما اختير من آداب ابن المقفع فى وصاياه لهم

لا تكوننّ صحبتك للسلوك إلاّ بعد رياضة منك لنفسك على
طاعتهم فى المكروه عندك وموافقتهم فيما خالفك وتقدير الأمور على
أهوائهم دون هواك، فإن كنت حافظاً إذا ولّوك، حذراً إذا قربوك أميناً
إذا ائتمنوك، تعلمهم وكأنك تتعلم منهم، وتؤدّبهم وكأنك تتأدّب بهم
وتشكر [هم] ولا تكلفهم الشكر، وكنت كافياً إذا صرفوك، راضياً إذا
أسخطوك، وإلاّ فابعد عنهم كل البعد والحذر كل الحذر.

وقال: إذا صحبت الملك فعليك بطول الملازمة فى غير معاتبة، وإذا
نزلت عنده بمنزلة الثقة، فاعزل عنه كلام الملق، ولا تكثرن له من
الدعاء، إلاّ أن تكلمه على رءوس الناس فلا يكونن طلبك ما عنده
بالمسألة ولا يستبطئه، وإن أبطأ اطلبه بالاستحقاق، ولا تخبره أن لك
عليه حقاً، وإنك تعتد عليه بخدمته وحرمة، ولا تعطينه المجهود كله
فى أول الصعبة، ولا تجد موضعاً للمزيد، ولكن دع للمزيد موضعاً،
وإذا سأل غيرك فلا تكن المجيب، واعلم أن استلابك للكلام،
استخفاف به، ولا تسار فى مجلسه أحداً، فإن السرار يخيل إلى كل من

رآه من سلطان أو غيره أنه المراد به، وإذا كلمك فاصغ لكلامه، ولا تشغل طرفك عنه بنظر ولا قلبك بحديث نظر.

وقال أيضاً: جانب المسخوط عليه والنظير عند الملك ولا يجمعنك وإياه مجلس ولا منزل، ولا تظهرن له عذراً ولا تش عليه عند كل أحد، فإذا رأيته قد بلغ في الانتقام ما ترجو أن يلين بعده فاعمل على استجلاب رضاه عنه برفق وتلطف.

فصل

في نكت من آداب أصحاب الملوك

كان معاوية يقول: لا يغلب على الملك شيء كحسن الاستماع إلى حديثه والحلم عند سورته.

وكان مسلم بن عمر يقول: ينبغي لمن خدم الملوك أن لا يغتر بهم إذا رضوا عنه، ولا يتغير لهم إذا سخطوا عليه، ولا يستثقل ما حلوه ولا يخف في مسألتهم.

وكان شبيب بن شيبه يقول: ينبغي لمن سائر الملوك أن يكون بالموضع الذي إذا أراد الملك أن يسأله عن شيء لم يحتج إلى أن يلتفت، ويكون من ناحية إن التفت لم يستقبل الشمس، وإذا سار بين يديه فينبغي أن يحيد عن سفين الريح التي تؤدي الغبار إلى وجهه.

ويقال: إن سعيد بن مسلم بن قتيبة بينما هو يسير موسى الهادي وعبد الله بن مالك أمامه والحرية بين يديه فكانت الريح تسمى التراب التي تثير دابة عبد الله في وجه موسى الهادي، وعبد الله لا يشعر بذلك والهادي يحيد عن سفي التراب ما يؤذيه، فلما كثر الأذى عليه قال لسعيد: أما ترى ما تلقاه من هذا الخائن في سفرنا هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين ما قصر في الاجتهاد ولكنه حرم التوفيق!

فصل

في مجالسة الملوك ومناذمتهم

ينبغي لمن يجالس الملك ويناديه، أن يديم الأخذ بأطرافه وأن ينظف جسمه، ويظهر ثوبه ويحمل هيئته ويظهر مروءته، ويحسن جلسته، ويجمع كل عقله وأدبه لخدمته، وبغض من بصره، وصوته في مجلسه، ولا يكنمه مبتدئاً حتى يكون الملك هو المبتدئ بحديثه، ويحسن الاستماع إلى كلامه، ويصرف إليه مجامع فكره وذهنه، وإن كان يعرف الحديث الذي يحدث به الملك فليصغ إليه إصغاء من لم يسمعه قط، وليظهر الاستبشار به والاهتزاز للاقتباس من نوره والاعتراف من بحره، فإذا أنس به الملك فأقبل عليه واسترسل إليه وطاوله الحديث وهازله وضاحكه، وأفضى إليه سره واختصه دون نظرائه، فينبغي أن يدخل إليه بعد ذلك دخول من لم يمر بينهما أنس قط، ويظهر من الإجلال والتعظيم والخشوع والخضوع أكثر ما كان عليه قبل؛ فقد

نصح من قال: إذا اتخذك الملك أياً فاتخذته رباً، وإذا زادك رئيساً فزده إجلالاً.

ويجب عليه أن يخفض صوته بحضرة الملك؛ ويتأدب بأدب الله تعالى في قوله: ﴿يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ (الحجرات: ٢) وأن يحسن المحضر لكل من يجرى حضوره بين يدي الملك ويقول له حسناً.

ومما يحسن ويستحب من أفعال جلساء الملوك، ما فعله جليس كان للمنصور، وذلك أنه أتى بشيخ كبير كان خرج عليه من ناحية المغرب فلما وقع بصره عليه اغتاظ، وأمر بتمزيق ثيابه وإقامته بين العقابين، فحين أخذته الشياطين مثل بقول الشاعر:

أتروض عرسك بعدما حرمت ومن العناء رياضة الهرم

فلو سمعه المنصور لأمر بضرب عنقه، فقال: ماذا يقول؟ فقال الجليس: مثل بيت عنزة:

العبد عبدكم والمال مالكم فهل عذابك عنى اليوم مصروف؟

فرق له وأمر بتخليه سبيله وأخذ الكفيل منه.

قال صاحب "أخلاق الملوك" من حق الملك أن لا يرفع أحد من خاصته وبطانته رأسه إلى حرمة له صغرت أم كبرت، ولا يملأ عينيه

من غلام له صبيح أو قبيح؛ فكم من فيل قد وطئ رأس رئيس حتى تنثر دماغه، وداس بطنه حتى بدت أمعاؤه. وكم من شريف وعزيز قوم قد مزقت السباع جلده، وتنهشت لحمه، وتمششت عظامه، وكم من جمجمة كانت تصان وتعلّى بالمسك والبان، وقد نبذت بالعراء وغيت جثتها في الثرى بسبب حرم الملوك وخدمهم وغلمانهم، وكم من جارية عزيزة كأنها فلقة قمر على برج فضة، قد أكلتها حيتان البحر وطير الماء من تهمة اتجهت عليها ممن رفع طرفه إليها.

قال: وينبغي أن يكون نديم الملك معتدل الطبيعة، لا الصفراء تقلقله، ولا البلغم يكثر مقامه، ولا السوداء تضجره وتطيل فكره، فأما الدم فليس يدخل في هذه الأقسام المذمومة؛ إذ بالبدن إليه حاجة كحاجته إلى تركيبه وسلامته.

قال: وليس لنديم الملك أن يختار كمية ما يشرب ولا كيفيته لأنها إلى الملك، إلا أن من حق الملك أن يأمر بالعدل عليه والوقوف به عند حد استطاعته وإعفائه عن الشرب إذا بلغ مجهود غايته فيه.

قال: ومن حق الملك إذا غلبت عيناه أن ينهض من حضره من صغير أو كبير بحركة لينة خفيفة حتى يتواروا عن مجلسه، ويكونوا بحيث يقربون منه إن انتبه، ولا يقولن جلس الملك في نفسه: لعل الملك إن هب من نومه لا يسأل عني؛ فإن ذلك من أكبر الخطأ.

ونختتم هذا الفصل بييتين أنشدنيهما أبو الفتح البستي لنفسه، وهما مما ينبغي لنديم أن يكتبه في السوادين من عينيه:

إذا خدمت الملوك فالبس من التوقى أعزّ ملبس
وادخل عليهم وأنت أعمى وأخرج - إذا ما خرجت - أخرس

فصل

في الهدية

نما يجب على خدام الملوك: إقامة رسم الهدايا في النيروز والمهرجان،
وعند الحجامة والفصد، وشرب الدواء، والقُدوم من الأسفار، فإن
الهدية عادة مشكورة، وسنة مأثورة.

وفي الخبر عن النبي ﷺ: "تمادوا تحابوا".

وكان يقال: أهدوا إلى الولاة فإنهم إن لم يقبلوا أحبوا.

وكان الفضل بن سهل يقول:

ما أَرْضَى الغضبان، ولا استعطف السلطان، ولا سَلَّت السخائم
ولا دَفَعَت المغارم، ولا أَسْتَمِيلَ المحبوب ولا تَوَقَّى المخدور بمثل
الهدية.

فأحسن ما قيل في الإهداء إلى الملوك قول أحمد بن يوسف
للمأمون:

على العبد حقُّ فهو لابدُّ فاعلة وإنَّ عَظُمَ المولى وجَلَّتْ فضائله
ألم تَرَنَّا نَهْدَى إلى الله ماله وإنَّ كانَ عنه ذا غنى فهو قابله

وكننت افتمتحت كتاباً في اهدايا وما قيل فيها نظماً ونثراً فعافت
المعواتق عن استتمامه واختتامه، ولعله يقع في مائتي ورقة.

ومن ملح ذلك الباب وظرفه ما كتب أبو إسحاق إبراهيم بن هلال
المصائبي إلى شرف الدولة أبي الفوارس [ابن] عضد الدولة مع درهمين
خسروانيين وكتاب المسالك والممالك في دفتري:

أهدى إليك بحسب حالي	في الخصاصة درهمين
وبحسب قدرك دفتري	هما جميع الخافقين
فإذا افتحتهما رأيت	بيان ذلك بلحظ عيني

وكتب إلى عضد الدولة مع اصطرلاب أهداء إليه:

أهدى إليك بنو الأمال واحتفلوا	في مهرجان جديد أنت تعليه
لكن عبدك إبراهيم حين رأى	علو قدرك عن شيء يدانيه
لم يرض بالأرض مهداة إليك فقد	أهدى لك الفلك الأعلى بما فيه

وعنى ذكر الفلك الأعلى، فليكمل هذا الكتاب الخوارزم شاهي على
الجد الأعلى الأصعد، والطائر الأيمن الأسعد، لمولانا الملك السيد
الأجل ولي النعمة، أطال الله بقاءه وأدام علاه، وخذل شانه، وكبت
أعداءه.

والعبد الخادم والنصيعة مؤلفه يقول:

تم الكتاب بدولة الملك المذى قد صكّ نأج علاه فوق الفرد
خوارزم شاه البدر مأمون بن مأمون عماد المجد عَيْن السؤدد
لا زال بين سعادة وإفادة وزيادة فى ظل ملئ سمرقند
والحمد لله العظيم جلاله ثم الصلاة على النبى محمد

تم الكتاب بحمد الله ومنه وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين.

وكان الفراغ من كتابته فى العُشر الأخير من شهر رجب الفرد من
سنة [...] وألف على يد فقير رحمة ربه عمر السديسى غفر الله له
ولوالديه، وللناظر فيه، ولمن دعا لهم بخير، والحمد لله وحده.

تم تم

مطابع أمون

٤ ش. الفيروز متفرع من إسماعيل الباطنة

لاظو غلى - القاهرة

تليفون : ٧٩٤١٥١٧ - ٧٩٤٣٥٦